

الباب الثاني
شراء الفتوح

obeikandi.com

الفصل الأول شعراء متنوعون

١- الفتوح تذكى جذوة الشعر العربي

قال ابن سلام: «جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد، وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته»^(١).

وهذا القول الذى يجانب الصواب لم يقتصر على ابن سلام وحده، وإنما تابعه فيه كثير من الدارسين حتى استحال عصر صدر الإسلام لدى بعضهم إلى عصر ركود أدبى، ولدى بعض المعتدلين منهم إلى عصر هدوء أدبى.

والحقيقة الواضحة أن الإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشعر وروايته، لأنه لم يكن يملك هذا لو أراد، ولم يكن له أن يريد هذا الأمر مع ما للشعر من سلطان على نفوس العرب، ذلك أنه علم قوم لم يكن لهم علم غيره^(٢).

وكل ما كان من آثار لمجيء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته فى الحياة العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية فأخذ يخلع طوابعه الخاصة على الشعر، ليتحول من ألوية تتلهى بها طبقة معينة من الناس إلى وسيلة نافعة، تُسخَّر من أجل مجموع المسلمين، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة، وتعمل فى سبيل غاياتها ومثلها.

ومن ثم كان على الشعر أن يطرح عنه مفهومه القديم، وأن يتقيد بقيم معينة، فرضها الدين الجديد، وأن يستهدف غاياته الرفيعة إذا أراد أن يكون له وجود فى هذه الحياة الجديدة، وإلا كان من الخير أن يصمت.

(١) طبقات الشعراء، ص ١٠.

(٢) ابن سلام، ص ١٠، العملة ج ١ ص ٩.

ومادامت الحياة العربية بجميع مظاهرها قد تعرضت للتغيير فإن الشعر يصبح فاقدًا لكل قيمة، إذا لم يتجاوب معها فيصورها من كافة أقطارها، في ظلال القيم الجذيدة التي أصابت حياة الناس بالتغيير، والإسلام فضلا عن كونه رسالة دينية ليس إلا نمطا من أنماط السلوك وأسلوبها من أساليب التفكير، ولا بد له من ثم أن يترك آثاره على الحياة الفنية.

هكذا كان على الشعر أن يكون قوة ذات أثر في نطاق من حقائق الدين وغاياته، وإلا كان من الطبيعي أن يجد الناس طلبتهم فيما جاءهم به الدين الجديد من آيات كتابه المعجز، وأحاديث رسوله وخطبه، وأكد هذه القيمة التي اكتسبها الشعر أن الإسلام حركة فكرية لها وجهها الأدبي، بل إن الإعجاز الأدبي كان أكثر جوانبها تألقا وإغراء للعرب واجتذابا لهم، وأن طبيعة العقل العربي وما جاء به الدين الإسلامي من تعاليم لم يفسح مجالًا ما للون من ألوان الفنون الأخرى، فلم يكن أمام تلك الطاقات المختزنة في النفس المسلمة إلا أن تجدد لها مسربا في الشعر لا تعدوه، طالما يتجاوب مع حياتها الجديدة.

وكان للصراع بين الدين الجديد وأعدائه أثر كبير في تأكيد قيمة الشعر العربي وتحديد مهمته في تثبيت دعائم الفكرة الإسلامية، ودحض افتراءات أعدائها. فقد انطلق مشركو مكة بغرور شعراءهم بالإسلام وبنبيه، وكان لذلك أثره في نفس النبي ﷺ وصحابته المسلمين، نتيجة إحساسهم بخطر هذا السلاح في تعويق الدعوة والتنفير منها وتشويهها، وإفساد عمل دعائها، وبخاصة بين أولئك الذين لم تستقر في قلوبهم وعقولهم بعد الملامح الجديدة للعقيدة، وأولئك الذين يعطون لهذا الشعر الذي يصدر عن مكة وعن شعراء من قوم النبي ﷺ قيمة خاصة.

وكان ضروريا - والأمر كذلك - أن يخوض الشعر الإسلامي معركة عنيفة ضد أعداء الإسلام، خلع عليه فيها نبي الإسلام كل تأييده وحفزه وتشجيعه، فندب الشعراء وأهاجهم واستحثهم، وكان يتشكى لمنافحتهم ويدعو لهم^(١)، وهذا كله يعني تقدير النبي ﷺ لخطر الشعر وقيمته، لأن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، وشعر المسلمين أشد على الكفار من نضح النبل. ويتجلى تقدير النبي ﷺ للشعر فيما خلعه على الشعراء الذين تقيدوا بالقيم الإسلامية وما حباهم به من عطفه، كما يتجلى في موقفه من شعراء قريش

(١) العملة ج ١ ص ١٢.

الذين بلغت قسوتهم في الحملة عليه وعلى الإسلام حد أن توعدهم بالقتل، وقتل بعضهم فيما بعد^(١).

وكل ما نريد أن نوضحه أن الإسلام لم يقف من الشعر موقفا عدائيا ولم يحاول أن يحمل العرب على الانشغال عنه، وإنما كان موقفه منه كموقفه من كل مظاهر الحياة المتخلفة عن الجاهلية، إذ حاول أن ينفي عنها طوابعها التي لا تتلاءم مع الدعوة الإسلامية، ثم يدفعها للانسياق في إحياءات الحياة الإسلامية ومتطلباتها، في نطاق من تعاليم الدين الجديد.

فلم يكن من هدف الدين الإسلامى، ولا من هدف رسوله ﷺ في شيء أن يحول بين العرب وبين الشعر، وإنما كان الهدف أن يوضع الشعر موضعه، وأن يخطط له بما يجعله ذا قيمة فاعلة في حياة المسلمين، لما كان يدركه من عمق الصلة بين حياة العرب وبينه. . . وأنه لن يستطيع أن يقصر حياتهم الفنية على ما كان من إعجاز القرآن وترتيله، ومن ثم - فقد آثر أن يحوله عن وجهته الجاهلية إلى هذا الأفق الجديد، فحرض الشعراء، ودعا لهم وأغراهم على السير فيه، بينما ضرب على أيدي الشعراء الذين ظلوا يعيشون بمفاهيم جاهلية، يتخذونها وسيلة لمحاربة الإسلام والتفكير منه، وإثارة الفتن والعصبيات، وإيذاء النفوس، وإشاعة البغضاء بين المسلمين.

حمل الإسلام حملة شعواء على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم تجلت في سورة الشعراء، وفي أحاديث الرسول ﷺ، فصورهم في صورة بشعة، ولم يستثن منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، وهؤلاء هم الذين نافحوا عن الدين، و زادوا عن العقيدة.

ولم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشعر وقيمه بين ليلة وضحاها، فهذه القيم قد رافقت الشعر أجيالا طويلة. وليس في الإمكان طرحها دفعة واحدة واستبدالها بقيم إسلامية تحمل محلها، وإنما احتاج الأمر إلى بعض الوقت الذى تبعد فيه الحياة تدريجيا عن رواسب الماضى، وترسب هذه القيم الجديدة فى النفوس رويدا رويدا.

(١) العمدة ج ١ ص ٧.

وكان طبيعياً أن يخفت صوت الشعراء وإن لم يصمت، فقد ظل الشعراء المؤمنون يقومون برسالتهم في رد سهام المشركين وحماية العقيدة ونصرتها، إذ كانوا أعمق فهما لرسالة الإسلام، وأسرع استجابة لها دون غيرها.

وخفت صوت الشعر أمام المثل الإسلامية الجديدة، التي تختلف تمام الاختلاف عن المثل الجاهلية التي اعتاد الشعر تصويرها والتحدث عنها، وفقد الآن حرية التعامل بقيمها وصورها وألوانها وأجوائها، وفقدت هي - من جانب آخر - طلاوتها، لأنها لم تعد ذكريات فاعلة عزيزة في تكوين الفرد والجماعة الجديدة داخل إطارها الجديد، وإن ظلت جزءاً من ماضيه، يأنف منه ويزدرجه.

ووجد الناس ما ينشدون من هذه المثل الإسلامية في القرآن الكريم، وإدمان القراءة فيه وتفهمه، وازداد صوت الشعر خفوتاً عندما أخذ اهتمام الناس ينتقل من قراءة القرآن وتفهمه ككتاب مقدس للدعوة الإسلامية إلى كتاب أدبي، يفوق بروعته وبيانه ما ورثوه من تليد الشعر، ويتجاوز سحره طاقة البشر ويطرح وراءه كل الشعراء المجيدين.

فهذه طائفة من صحابة الرسول ﷺ تبدل من عنايتها بالشعر وروايته وحفظه عناية بالقرآن فائقة، وإدماناً في النظر المعن فيه، وهذا ليبد يستعوض عن الشعر بسورة البقرة، وهذا على بن أبي طالب ينصح لأبى الفرزدق بأن يحفظه القرآن، وكأئماً بصرفه عن الشعر صرفاً^(١).

وهكذا استقر في أذهان المسلمين أن أساليب القرآن تستطيع أن تسع منازعهم النفسية العميقة، وأن توحى بكثير من ألوان البيان المماثل، فوجدوا في القرآن بديلاً فنياً غلب الشعر على منزلته، حتى لقد صار شاعر الرسول ﷺ ينشد في المسجد فلا يجد من يستمع إليه، ويضطر الزبير أن يهيب بهم ليستمعوا له^(٢). . فقد كان الناس عن ذلك في شغل بالقرآن الذي استأثر بهم لأن فيه ما يهيج العصبية والحزازات التي قضى عليها الإسلام.

(١) الأغانى (ساسى) ج ١٩ ص ٩.

(٢) العملة ج ١ ص ١٠.

شغل المسلمون إذن عن الشعر. ففيم الخلاف مع ابن سلام الذى قرر: أن الإسلام شغل العرب عن الشعر؟ إن الخلاف ليس فى هذا القول، وإنما فيما يقرره من أن شغل العرب كان بالجهاد وبغزو فارس والروم.

فإن الحقيقة كما قررناها أن شغل المسلمين عن الشعر لم يكن إلا نتيجة لمحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر ليتفق وتعاليمه ومثله، وأن الشعر عجز عن أن يقدم للناس ما وجدوه فى القرآن فخفض صوته، وإن لم تغض منابعه.

ثم كانت الفتوح الإسلامية التى أذكت جذوة الشعر العربية وأطلقت الألسن من عقالها، وكأنما كان الشعر الرثة التى تنفس خلالها ما اختزن فى النفوس العربية خلال هذه الفترة، فقد فتحت الفتوح أمام الشعر مجالات واسعة، ووضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التى ألقوها وألفها الشعر فى الجاهلية، وإن اختلف الهدف بين المواقف اختلافا شاسعا، إلا أنها قد أزال حرج الشعراء، وفتحت أمامهم أبوابا كان طرقها محظورا فى ظلال الفكرة الإسلامية، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ما داموا جميعا يذودون عن العقيدة، ويبدلون الأرواح رخيصة فى سبيلها. أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافا عن حدود المهمة التى نيّطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات التى كان يجب أن تختفى ويعفى على آثارها.

لا ضير فى أن يشعر الفرد المسلم بما لقيته من مجد مؤثّل فى موطن بذلها فى سبيل العقيدة، كما فعل نافع بن الأسود بن قطبة فى الفخر ببلاء تميم فى مقتلة أسد بالقادسية:

تممك أكفاء الملوك الأعظم
وهم من معد فى الذرا والغلاصم
وهم يطعمون الدهر ضربة لازم
سانها فى الزمان الأول المتقدم
وبادوا معدا كلها بالجرائم

وقال القضاة من معد وغيرها
هم أهل عز ثابت.. وأرومة
وهم يضمنون المال للجار ما توى
لذلك كان الله شرف فر
وحين أتى الإسلام كانوا أئمة

إلى هجرة كانت سناء ورفعة
فجاءت بهم فى الكتائب نصره
فصفوا لأهل الشرك ثم تككبوا
لدى غدوة حتى تولوا تسوقهم

لباقيتهم فيهم وخير مراغم
فكانوا حماة الناس عند العظام
وظاروا عليهم بالسيوف الصوارم
سيوف تميم كالليوث الضراغم^(١)

وهل كان بإمكان شاعر أن يقول مثل هذا القول فى المسجد - مثلا - وعمر بن الخطاب يسك بأذن حسان بن ثابت ليعنفه على ما قال من شعر، شبهه بأنه رغاء كرها البعير^(٢).

فالأمر فى رأينا لا يخرج عما كان من موقف الفروسية العربية من الإسلام، فقد وجدت فرصتها فى الفتوح بعد أن ضاقت بها الحياة الإسلامية فنهت عن أن يقاتل المسلم أخاه، فإن فعل فقد قاتل تحت راية عمية، وإن قتل قتل قتلة جاهلية. كذلك كان الشعر، ووجد فرصته فى الفتوح، حيث يفاخر الشاعر ببلاته، وينهى به إلى امرأته أو صاحبه، ويهجو الكفرة أعداءه، ويقذع فى هجائهم دون تخرج أو ضمير.

فكما كانت الفتوح متنفسا للعرب المظطورين على الفروسية والنجدة والشجاعة فطرحوا فيها ما كان من بأس فيما بينهم، كذلك كانت الفتوح متنفسا للعرب المظطورين على الشعر والفصاحة طرحوا فيها كل ما كان محظورا عليهم فى مواقف أخرى.

ولا شك فى أن ارتباط الفتوح بفكرة الجهاد التى تمثلت بلورة نورانية تخطف قلوب المؤمنين، كان له أثر كبير فى ترسيب المثل الإسلامية فى نفوس المجاهدين من الشعراء، فانطلقت ألسنتهم بما رأينا من الشعر الذى واكب عمليات الفتوح خطوة خطوة.

وجدير بالذكر أن الشاعر المسلم فى الفتوح قد مارس ألوان الشعر التى كانت محظورة عليه قبل الفتح فى ظلال فكرة جديدة، لم تكن القبلية بحال من الأحوال، وإنما كانت فكرة الجماعة الإسلامية الكبيرة، فوقف منها موقف المدافع، وانبرى يشيد

(١) الإصابة ج ٦ ص ٢٦٢.

(٢) أغاني دار الكتب، ج ٤ ص ١٤٤.

بانتصارها على أعدائها، وحلت من وجدانه محل القبيلة الصغيرة، التي كان يفنى فيها وفى الذود عنها. وأصبح يتغنى بعواطف الجماعة الإسلامية ويوجدانها، بعد أن كان يعنى عواطف القبيلة الضيقة، وصارت له شخصية فردية ذات أبعاد وحدود وملامح بارزة داخل الجماعة الكبيرة، بعد أن كان خيطا رفيعا فى نسيج القبيلة العريض.

وقد شغلت الفتوح الإسلامية المسلمين عن كل شيء فى حياتهم إلا الفروسية والشعر. ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن الفتوح لم تقم إلا بهذين المظهرين من مظاهر الحياة العربية. فكانت الفروسية سببا فى نجاح الفتح، وكان الشعر نتيجة للفتوح.

وألقت الفتوح بهذا عبئا جسيما على عواتق المجاهدين، استهلكت جهودهم، وشغلت حياتهم فلم تتسم لحظة بالهدوء أو بالاستقرار، وشغلوا بالانسياح فى الأرض — بعد أن ضاقت بلادهم بألق إيمانهم — يتدفقون كتائب تتبعها كتائب إلى العراق وخراسان والشام ومصر وأفريقية فيصيبون توفيقا أى توفيق يغرى غيرهم، فيتدفقون سيلاً مندفعاً فى تيار الفتح، وأضحى جزيرة العرب مخزناً كبيراً للرجال، يذخر حيناً، ويخلو فى أكثر الأحيان. والمجاهدون يتعرضون لمشقات الاستنفار والتجيش، وأهوال القتال وعنف المعارك، ومع ذلك فإن الغايات الشريفة التى استشرّفوها لم تقض على منازع الفن الشعرى فى نفوسهم.

حقاً لم تكن حياة العسكر تسمح لهم بالفتريات التى يخلدون فيها إلى أنفسهم، ويخلون إلى ذواتهم ساعة أو بعض ساعة، يصبون فيها عواطفهم ومشاعرهم فى أبيات تقصر أو تطول، وحقاً كانت ظروف القتال ألا تكاد تترك لهم لحظة هادئة، فهم بين أن يكونوا مدافعين أو مهاجمين، يتحولون من ميدان إلى ميدان، ويتركون معركة ليستقبلوا معركة. ولكنهم — على الرغم من كل هذه القسوة والقلق والتوزع — نفوس تشعر وتحس، وتأمل وتحذر، وتتصر وتهزم، فتفرح أو تشقى، وهذه المشاعر لا بد أن تجد متنفساً لها، وتلك الطاقات النفسية لا بد أن تجد مسرباً ينفس عنها، ويحمل مواجدها وأشواقها.

وهذه البيئات الجديدة التى لم يألّفوها ألا تثيرهم؟ وهذه المناطق النائية ألا تذكرهم بأهليهم وأحبائهم وديارهم؟ وهذه المشاهد الغربية ألا تؤثر فيهم؟ ومتى شغلت الحرب العربى عن الشعر؟ ألم يقترن الشعر بالحرب عند العرب على طول الأزمان والحقب؟ ألم

يجعلوا للقتال والنزاع لحنًا معينًا يوقعون عليه ضرباتهم، ويضعونه موضع الموسيقى في الجيوش الحديثة.

لم يفارق الشعر العرب لحظة واحدة في الفتوح، ذلك أنه كان أداة للتحسيس والدفع والاستنفار، ينطلق المجاهدون على إيقاعه الهادر إلى النصر والشهادة.

وآية هذا أن الإسلام أراد أن يغير مظاهر الحياة العربية جميعها، ومنها الشعر، فحدد له قيمة ومهمة تتفق وتعاليمه، ولم يستطع الشعر أن يواكب هذه القيم دفعة واحدة، فخفت صوته إلى حين حتى كانت الفتوح الإسلامية فأذكت جذوة الشعر العربية، وأطلقت ألسنة الشعراء، وأودت بكل حرج، ووضعت أمامهم مواقف يمارسون فيها ألوان الشعر التي قيدها الإسلام، وفتحت أمامهم آفاقًا واسعة، وتجارب حافلة بألوان من العواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة.

٢- شعراء قداماء

خفت صوت الشعر، ولكنه لم يصمت تمامًا، فقد كان هناك شعراء استجابوا لدعوة الإسلام سراعًا، واستبدلوا بمفاهيم الشعر الجاهلية مفاهيم إسلامية جديدة، واستطاعوا أن يتقيدوا بمهمة الشعر التي حددتها المثل الإسلامية، وأن يكتسبوا لأنفسهم أسلوبًا أفادوه من التأثر بالقرآن الكريم، كما فعل أولئك الذين جنّدوا للتصدي لشعراء قريش. بينما ظلت طائفة منهم لم تسعفهم سلائقهم الشعرية بما طبعت عليه من الإلف للتقاليد الجاهلية المتأصلة بعيدة عن التأثر بهذه المثل، ومن ثم لم يتمكنوا من أن يستبدلوا بها غيرها فكان أن سكتوا عن قول الشعر، حتى كادت ينابيعه أن تغيض في وجدانهم.

وكان هناك بطبيعة الحال طائفة أخرى، اختلطت فيها الماضي بالحاضر، فمزجت بين ما كانت فيه وما أقبلت عليه. وقد وجد هذان النوعان في الفتوح الإسلامية منطلقًا لهم ومتنفسًا، فشارك عدد كبير منهم فيها، واحتفظت لنا الروايات بأخبارهم وأشعارهم، دون أن تؤثر في ذلك ظروف الفتح التي طمست صورة الشعراء المغمورين، الذين لم يكن لهم شهرة بالشعر من قبل.

أما هؤلاء الذين نضجوا وذاع صيتهم وشهرتهم قبل الفتوح فلا نجدهم قد تأثروا بذلك إلا قليلًا، فشعرهم وإن كان أبياتًا مفردة أو مقطعات مبتسرة يتلقفه الرواة

والإخباريون والمهتمون بالشعر، متأثرين في ذلك بما لهؤلاء الشعراء من ماض فني، دون نظر منهم إلى قيمة الشعر ذاته، التي اكتسبها من الظروف التي صدر خلالها.

وقد شارك في الفتوح عدد كبير من الشعراء القدامى من أمثال عمرو بن معديكرب الزبيدي، وعبد بن الطيب، وأبي محجن الثقفي، وربيعة بن مرقوم الضبي، وأبي ذؤيب الهذلي، وعمرو بن شأس الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي، وعروة بن زيد الخيل الطائي والناطقة الجعدى، والشماخ والحطيئة.

وليس شك في أن شعر هذه الطبقة من شعراء الفتح يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء، فهو شعر ناضج برغم الظروف التي شهدت مولده، وهو يمتاز عن بقية شعر الفتح بامتداد نفسه نسيباً، كما يظهر فيه بوضوح غلبة الفخر الفردي على الفخر بجماعة المسلمين، وكأن الشاعر الناضج يحس بنفسه إحساساً أقوى من إحساس غيره من الشعراء المغمورين، بل أقوى من إحساسه بالمثل الدينية في أكثر الأحيان.

كما أن شعرهم يتميز بميزة خاصة وهي أن فرصة الظن في انتحاله نادرة، إذ هناك ما يخشاه المتحل لو عزا انتحاله إلى شاعر شهير، فإنه بذلك يضع نفسه موضع الشبهة إذا ما تكلف الدارسون بإعادة الأمور إلى نصابها بالتحليل والتدقيق، ومقارنة المتحل بشعره المعروف له.

وقد يعجب الدارس حينما يجد هذه الطبقة الممتازة من الشعراء على كثرة عددها لم تخلف في شعر الفتوح آثاراً تتناسب معها في الكم والكيف. حتى إننا إذا أردنا أن نتخذ أحدهم مثلاً للشعراء القدامى الذين أسهموا في الفتوح لم نجد أحداً منهم جديراً بالدراسة، لقلة ما خلف في ظروف الفتح. ولسنا نستطيع أن نعزو قلة شعرهم إلى ضياعه، لما سبق أن قررناه من أن شهرتهم قد حفظت شعرهم من الضياع، فوصل إلينا كاملاً، كما وصلت إلينا أخبارهم بتفاصيلها الدقيقة.

فهذا عبدة بن الطيب^(١) تذكر الروايات عنه أنه شهد مع المشي بن حارثة قتال هرمز. وله في ذلك آثار مشهورة^(٢) وأنه شهد الواقعة التي كانت عقب القادسية^(٣)، كما

(١) أخباره في الأغاني ماضي ج ١٨، ص ١٦٢، والشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٠٥، الإصابة ج ٥ ص ١٠١، المفضليات ص ٢٦٨.

(٢) ابن قتيبة ج ٢ ص ٧٠٥. (٣) المفضليات ص ٢٦٨.

يروى أنه كان في جيش النعمان بن مقرن، وأنه شهد معاً حرب الفرس في المدائن^(١)، ثم لا نجد من هذه الآثار المشهورة إلا قصيدة واحدة، وإن كانت طويلة جداً، إذ تبلغ نيفا وثمانين بيتاً، تتنازعها هذه الروايات جميعاً بين أن تكون قد قيلت في وقعة بابل - التي كانت بين المثنى وهرمز على مبعدة خمسين ميلاً من المدائن^(٢) أو أن تكون قد قيلت في وقعة المدائن ذاتها، أو في نهاوند، حينما غزا مع النعمان بن مقرن. وقد توهم صاحب الإصابة أنها المدائن، متابعاً في ذلك لصاحب الأغاني.

ونحن نميل إلى أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في وقعة نهاوند، التي وقعت بعد تمصير الكوفة التي يشير إليها الشاعر.

ويجد الباحث نفسه متحيراً أمام هذه القصيدة الرائعة، ولا ترجع حيرته إلى روعتها وإلى امتداد نفسها في مثل هذه الظروف القلقة فحسب، وإنما للحيرة أسباب أخرى.

فجميع الروايات متفقة على أن هذه القصيدة من قصائد الفتح الإسلامي وأنها قيلت في إحدى الوقائع التي شهدها الشاعر ضد الفرس، والقصيدة تشير إلى ذلك في بعض أجزائها، من مثل قول عبدة في مطلعها:

هل حيل خولة بعد الهجر موصول	أم أنت عنها بعيد الدار مشغول؟
حلت خويلة في دار مجاورة	أهل المدائن فيهما الديك والفيل
يقارعون رءوس العجم ضاحية	منهم فوارس لا عزل ولا ميل
فخامر القلب من ترجيع ذكرتها	رس لطيف ورهن منك مكبول
رس كرس أخى الحمى إذا غبرت	يوماً تأويه منها عقابيل
وللأحبة أيام تذكرها	وللنوى قبل يوم الين تأويل
إن التي ضربت بيتاً مهاجرة	بكوفة الجند.. غالت ودها غول ^(٣)

(١) ج ١٨ ص ١٦٣، الإصابة ج ٥ ص ١٠١.

(٢) راجع صحيفة ٢٩ من هذا البحث.

(٣) المفضليات ٢٦٨ / ٢٧٠.

وإلى هذا الحد لا موجب للحيرة، فالشاعر يتحدث عن صاحبه التي هجرته - أو هجرها - ونزحت إلى الكوفة، حيث جاورت المدائن التي فيها الديوك والفيول وحيث المسلمون يقارعون فوارس الفرس. وقد عاوده حبه القديم كأنه مس الحمى في مبتدئها ومتهالها. وصاحبه هذه التي استوطنت الكوفة لا تشعب به، فقد نسيت هواه، وكأنما غالته غول.. إلى هنا لا موجب للحيرة.

ثم يتقل الشاعر من بعد إلى وصف ناقته ورحلته بعد أن تخلص فرمى نفسه بالضلال، إذا سمح للصبابة أن تشغله عن عمله، واستغرق وصفه لناقته ستة عشر بيتا، وصفها فيها بعظم الخلقة والسرعة والقوة، في لغة جاهلية نحتت تحتها، وتعرض في أثناء ذلك إلى وصف ما صادفه في الرحلة من القطا، ثم عاد إلى وصف الناقة، فشبها بثور وحشى، وصفه بأنه بعيد ما بين القرنين محجل مكحول العين. ووصف القانص الذى يترصده وزوجه تنتظره وقد نام فى حجرها صغير كالقرد، وهذا القانص يغرى كلابه الضارية المدربة، ثم يصور المعركة التى نشبت بين الثور والكلاب تصويرا رائعا برغم ما يكتنف ذلك من صعوبة اللغة وتقعرها. ووصف بعد ذلك خروج الحيوان متأثرا من المعركة، يستقبل الريح كأنه السيف المسلول، ويصور إعياءه بعد أن صرع الكلاب طعنا فى صبورها فأنهك، لكنه يستشعر الظفر والانتصار فيجربى، وأثار المعركة بادية عليه، ودماء ضحاياه تلوث وجهه، وقد تدلى لسانه عن شمال شذقه، ويجربى فيشير جريه النقع، ولكنه يبرك ثانية حتى يكل فرجه من ارتظامه بالحصى. وقد استغرق الشاعر فى وصف هذه المعركة عشرين بيتا، انتقل بعدها إلى وصف منهل دل عليه رفاقه فى الرحلة، وكان الماء قد نفذ فوردوا، وقد ران عليهم النعاس من الإجهاد. ثم قالوا حد الظهيرة، وبعد ذلك رفعوا أردبتهم. وصاروا يعدون اللحوم للطعام ما بين ورد وأشقر، وفار باللحم للقوم المراجيل، وأكلوا ثم مسحوا أيديهم فى مناديل من أعراف خيولهم الجرد المسومة. ويستغرق هذا المشهد سبعة أبيات، يتحدث فى آخرها عن الخيول، ثم يعود كرة أخرى إلى وصف العيس التى ارتحلوا عليها.

ويعود بعد ذلك إلى حديث يذكرنا بالأبيات التى أسلفنا، ذلك أنها تنصرف فيما انصرفت فيه تلك الأبيات من تصوير الجهاد، وهى كذلك رقيقة فى لغتها حيث يقول:

نرجو فواضل رب سيبه حسن
وكل خير لديه فهو مقبول
رب حباننا بأموال مخولة
وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شح وإشفاق وتأميل^(١)

ثم انصرف عبدة بن الطيب إلى وصف جرأته ومغامراته التي أفرغ بها الوحوش في هدأتها، وطروقه القفار والأهوال بجواده المتكامل الخلقة، الذي تميزه سيقانه القوية السريعة المقتدرة. واستغرق هذا المشهد تسعة أبيات راح يصف بعدها طروقه لحوانيت الخمارين، مع صياح الديك، ومعه رفيق ضليل مثله أعداه بلذته وخرقه، جاد إذا حزبه الأمر، مخالط للهو واللذات. وفي هذا الخانوت بسطت لهما الفرش المزينة بالتصاوير الرائعة للدجاج والأسد، في جو رائع، حيث ترسل ذبالة ضوئها فترى الزق معدا، وآثار العراك باقية، والأكواب موضوعة، والأباريق مصفوفة، والريحان مجهزا، وأكوابا مترعة، والزبد طاف فوقها، والشواء يسعى به متمنطق عجول، حيث أعد الخوان وفوقه التوابل، واصطحب الشاعر بما شاء من طيب الراح، وتابع الشرب صرفا ومزوجة على الريحان، وعلى شعر مذهب لأنسة جيذاء، صوتها ترتيل، تغدو على الشرب وتروح، فتلهيهم تارة وتارة أخرى يحاصرونها، ويلقون عليها بردهم وسراويلهم إعجابا.

هل أمام الدارس إلا أن يقف محيرا أمام هذه القصيدة الرائعة؟

وعلام الحيرة؟ إن تلك الأبيات التي أشرنا إليها قد قيلت في الفتح، وما عداها لا يمكن أن يكون من شعر الفتح، أو من الشعر الإسلامي البتة والقصيدة إذن جزءان واضحان ومختلفان في مدلولهما وصياغتهما، أحدهما إسلامي، والآخر جاهلي. وليس ببعيد أن يكون أحد الرواة قد مزجهما في قصيدة واحدة على هذا الشكل الذي نراها عليه، وروتها به الروايات.

والذي يجعلنا نميل إلى هذا الرأي ما نراه من شبه في الصياغة الفنية لهذه الأبيات الإسلامية في القصيدة، وفي قصيدته الإسلامية التي يوصى فيها ابنه ويقول في ختامها:

(١) الفضليات/ ٢٨٦.

ولقد علمت بأن قصرى حفرة
 فبكى بناتى شجوهن وزوجتي
 وتركت فى غرباء يكره وردھا
 فإذا مضيت إلى سبيلى فابعثوا
 إن الحوادث يخرمن وإنما
 يسعى ويجمع جاهدا مستهترا
 حتى إذا وافى الحمام لوقته
 نبدوا إليه بالسلام فلم يجب
 غرباء يحملنى إليها شرجم
 والأقربون إلى ثم تصدعوا
 تسفى على الريح حين أودع
 رجلا له قلب حديد أصم
 عمر الفتى فى أهله مستودع
 جدا وليس بأكل ما يجمع
 ولكل جنب لا محالة مصرع
 أحدا وصم عن الدعاء الأسمع^(١)

فهذه سهولة إسلامية، ومعان تحمل ظلال الأفكار الإسلامية، شبيهة بحديثه عن العيش فى آيات لاميته. فنفس الروح الحكيمة جلية فى الموضوعين هذين، ولا يمكن أن يكون هو الذى يتحدث عن اللهو والشراب والطرب فى الإسلام، وهو الذى يقول فى نصيحة بنيه:

أوصيكم بتقى الإله فإنه
 يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
 وير والدكم وطاعة أمره
 إن الأبر من البنين الأطوع^(٢)

وعدا تلك الآيات التى تتحدث عن خولة ورحيلها إلى الكوفة، وحرب الفرس، وابتغاء فواضل الله لا نعرف لعبدة شعرا فى الفتح.

واشترك فى الفتح من الشعراء القدامى، ربيعة بن مقروم الضبي^(٣)، من شعراء مضر المعدودين، وهو مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وعمر طويلا فى

(١) المفضليات ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) المفضليات / ٢٩٧.

(٣) أخباره وشعره فى الأغنى (ساسى) ج ١٩/ ٩٠، والخزائن ج ٣ ص ٥٦٤، والشعر والشعراء ١/ ٢٧٩، والإصابة ج ٢/ ٢٢٠، والمفضليات ٢٦٨، ٣٥٥، والحيوان ج ١ ص ٣٤٧، ج ٦/ ٤٢٧، ج ٧/ ٢٦٣.

الإسلام^(١). وتذكر الروايات أنه شهد القادسية وجلولاء^(٢)، كما تذكر أنه كان سجيناً لدى كسرى المشقر قبل الإسلام^(٣). كما يذكر ابن حجر صاحب الإصابة أن له شعراً في القادسية^(٤).

وكل ما يروى له من شعر في الفتوح: لاميته المطولة، التي يتحدث فيها عن معركة الفيول. ورنانا مضطرين إلى أن نقارن بين هذه القصيدة ولامية عبدة بن الطبيب التي أشرنا إليها. ذلك أن ظروفهما تكاد تكون واحدة، وهي تسير على هذا النمط:

شماء واضحة العوارض طفلة	كالبدر من خلل السحاب المجتلي
وكأنما ريح القرنفل نشرها	أو حنوة خلطت خزامى حومل
وكان فاهما بعد ما طرق الكرى	كأس تصفق بالرحيق السلسل
لو أنها عرضت لأشمط راهب	في رأس مشرفة الذرا مبتل
جآر ساعات النيام لربه	حتى تخذد لحمه مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها	ولهم من ناموسه يتنزل ^(٥)

وبعد هذه المقدمة الغزلية – يبدو الشاعر وكأن غزله ساقه إلى تذكر ما كان في صباه، فيقارن بين ماضيه وحاضره، وتصييه الحسرة إذ طعن في السن، وغزا الشيب لمته، وانحنى ظهره، وأضحى يدب دبيبا كمن يخاتل صيدا عن نفسه، فيتذكر ما كان يصي الغواني من صباه وميعته.. فيقول:

بل إن ترى شمطاء تفرع لمتي	وحنا قناتي وارتقى في مسحل
ودلفت من كبر كائى خاتل	قنصا ومن يدب لصيد يختل

(١) الأغاني (ساسى) ج ١٩ ص ٩٠.

(٢) ابن قتيبة ج ١/ ٢٧٩، والخزانة ج ٣ ص ٥٦٤.

(٣) الأغاني ج ١٩/ ٩٠، والإصابة ج ٢ ص ٢٢٠.

(٤) الإصابة ج ٢ ص ٢٢٠.

(٥) الخزانة ج ٣ ص ٥٦٥، ٥٦٦، الأغاني ساس ج ١٩/ ٩٠.

فلقد أرى حسن القناة قويمها كالنصل أخلصه جلاء الصيقل
أزمان إذ أنا والجديد إلى بلي تصبى الغوانى ميعتى وتنقلي^(١)

ويدلف من ثم إلى الفخر بمهارته وبراعته فى القتال، وشهوده الحرب، وطراد الخيل بفرس سليم أوظفة القوائم هيكل، سباق لأوابد الجياد، يجرى منه الحميم، ويهوى بصاحبه هوى الصقر، وينقل إلى الحديث عن جسارته هو، فهو مقدم، لا يكاد يسمع دعوة للنزال حتى يكون أول نازل، وهو جماع للمال، ودخال لأبنية الملوك، وهو لا يغالى فى هذا القول، فشر ما قاله المرء ما لم يفعله، وهو أريب بارع يجيد خدع النزال، فقد يكون خصمه حنقا، يغلى صدره بعداوته، فإذا به يحاوره ويداوره حتى يتبين منه غرة فيكويه على نواظره. يقول:

ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
ولقد جمعت المال من جمع امرئ ورفعت نفسى عن لثيم الماكل
ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
ولرب ذى حنق على كأنما تغلى عداوة صدره كالمرجل
أرجيته عنى فأبصر قصده وكوته فوق النواظر من عل^(٢)

وتروى هذه الأبيات الأخيرة مضافا إليها أبيات أخرى فى بعض الروايات، تقول:

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس يبضها كالأعبل
متربلى حلق الحديد كأنهم جرب مقارفة عنية مهمل^(٣)

وهذه الأبيات هى التى يمكن أن تكون قد قيلت فى الفتوح، ويبدو من أفرادها برواية مختلفة عن القصيدة لاختلاف مدلولاتها عن بقية القصيدة أن القصيدة جاهلية فيما

(١) الخزانة ج ٣ ص ٥٦٥، ٥٦٦، الأغاني ج ٩١/٩٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الحيوان ج ٧ ص ٢٦٣، الفضليات ص ٢٦٨.

عدا هذه الأبيات، فهو ينزلق بعد ذلك إلى الحديث عن مغامراته اللاهية من أجل
الشراب والعبث، فهو عتيق في هذا اللهو، يفتن صديقه الزميت حتى يجعله يضرب
بعذل العذال عرض الحائط فيتبعه، ويعصاهم ويطيع لذته. وصديقه شريف الحسب،
يذهب إليه الشاعر فينبهه في الصباح أو قبل أن ينبجج الصباح ليأتيا حانوتا من حوانيت
الخمارين، حيث يصطحبان فيه معتقة لم يقتل عنفوانها الماء، ولا يزالان يسقطان على هذه
الحوانيت حتى تفرغ حاجتهما إلى اللذة. وعندما يتشئ الشاعر تهاجمه الذكريات فيتحسر
على سنوات عمره المائة، التي أضاعها ستة إثر ستة، والدهر يبلى كل جدة مبذل.
فيقول:

وأخى محافظة عصى عذاله	وأطاع لذته معم مخول
هش يراح إلى الندى نبهته	والصبح ساطع لونه لم ينجل
فاتيت حانوتا به فصبحته	من عاتق بمزاجها لم تقتل
صهباء إلياسية أغلى بها	يسر كريم الخيم غير مبخل
ومعرس عرض الرداء عرسه	من بعد آخر مثله في المنزل
ولقد أصبت من المعيشة لينها	وأصابني منه الزمان بكلكل
فلماذا وذاك كأنه ما لم يكن	إلا تذكرة لمن لم يجهل
ولقد أتت مائة على أعدها	حولا فحولا إن بلاها مبتلى
فإذا الشباب كمبذل أنضيت	والدهر يبلى كل جدة مبذل ^(١)

ويخوض بعد ذلك في فخر قبلي صرف بكرم قومه وقراهم الضيف، وتأدية
المعروف في غير تنحل، وشجاعتهم وحلولهم الثغور المخوقة، وإعانتهم لذي الغرم،
وحنينهم الجار، ورفعهم لذكرهم في كل محفل، وبيد لهم عن سعة، ويشيد بخطباء قومه
الفصحاء، وسعة حماهم، وقيامهم بحمولة المقل.

(١) الخزانة ج ٣ / ٥٦٦.

وهكذا تبدو واضحة جاهلية هذه القصيدة التي تذخر بالمدلولات الجاهلية، من الغزل الحسى، إلى وصف الفرس، والإشادة بجسارة الشاعر إلى سرد مغامراته الليلية فى علب الليل، إلى الفخر القبلى الصرّف بالكرم والشرف والسؤدد، بينما تبدو الأبيات التى أفردتها بعض الروايات بين هذه المدلولات الجاهلية - غريبة وقلقة فى موطنها، مما يؤكد ما ذهبنا إليه، من أن هذه القصيدة قد صنعت هى الأخرى عن عهدين مختلفين، ومزجتها الروايات بهذه الصورة، وخلافا لهذه الأبيات التى تتحدث عن معركة الفيول، والتى نرجع أنها قيلت فى القادسية^(١)، لا نعرف لربيعة بن مقروم الضبى شعرا فى الفتح.

ومن الشعراء القدامى الذين شهدوا الفتح: أبو محجن الثقفى، ذلك الفارس المعدود فى أولى البأس والتجدة^(٢)، وصاحب البلاء يوم أرمات بالقادسية. وتذكر الروايات خلافا كبيرا فى خروجه إلى الغزو، فيذهب بعضها إلى أنه حد فى الخمر مرارا، ولم يتنه فنفاه عمر بن الخطاب إلى جزيرة فى البحر، وأرسل معه حرسا تمكن من الخلاص منه، ثم التحق بسعد بن أبى وقاص فى القادسية^(٣). بينما تذهب بعض الروايات إلى أنه خرج غازيا مع سعد لحرب الأعاجم، فكان يؤتى به شاربا، فحبسه سعد فى القادسية^(٤)، كما تروى أخبار أخرى فى سبب نفيه مختلفة عن هذه الأسباب، التى أوردنا من أنه هوى امرأة يقال لها «شموس» واحتال فى النظر إليها وتغزل فيها فاستعدى زوجها عليه الخليفة، فنفاه، وهرب من حارسه ليلحق بسعد^(٥).

ولكننا لا نقبل هذه الروايات جميعا، فى خروجه، وكيفية التحاقه بسعد، فمن المؤكد أنه شهد معارك قبل القادسية، وروى له فيها شعر، كالذى أوردناه فى يوم الجسر، وكان قد شهد هذه الواقعة مع بنى أبيه من ثقيف، فى جند أبى عبيد الثقفى^(٦).

(١) الحيوان ، ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) أخباره وشعره فى الأغاني (مأسى) ج ١٣٦/٢١، ابن قتيبة ج ١ ص ٣٨٧، الخزانة ج ٣ ص ٥٥٠، والإصابة ج ٧ ص ١٧٠.

(٣) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٨.

(٤) الأغاني ج ٢١ ص ١٤٠.

(٥) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٨.

(٦) الأغاني ١٤١/٢١، والخزانة ج ٣ ص ٥٥٠، وابن قتيبة ج ١ ص ٣٨٧.

ومهما تختلف الروايات في أمر خروجه للغزو فإنها تتفق في مجموعها على رواية حبسه بالقادسية، واستعطافه زوج سعد أن تطلقه، حتى يشترك في القتال بشعر يكشف عن ولوعه بالحرب وبلائه فيها، كما تتفق جميعها على أفاعيله العجيبة يوم أرمات، حتى ليدخل عمله في إطار الأسطورة.

ويروى أنه لما عاد من القتال ليضع رجله في القيد كما تعهد لزوج سعد قابلته امرأة في الطريق فظته لعجلته فارا منهزما، فأنشأت تقول:

من فارس كره الطعان يعيرني رمحا إذا نزلوا بمرج الصفر

فأجابها أبو محجن:

إن الكرام على الجياد ميتهم فدعى الرماح لأهلها وتعطري^(١)

ولما عاد ورجع إلى محبسه أنشأ يقول:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرموا الوقوفا

وأنا رفسدهم في كل يوم فإن جحدوا فسل بهم عريفا

وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أكره لمخرجي الزحوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي وإن أطلق أجرعهم حتوفا^(٢)

وتروى في الخزائنة أبيات لم ترد في ديوانه عن بلائه في القتال، تقول:

لما رأينا خيلا محجلة وقوم بغى في جحفل لجب

طرنا إليهم بكل سهلبة وكل صافي الأديم كالذهب

وكل عراصة مثقفة فيها سنان كشعلة اللهب

وكل غضب في متنة أثر ومشرفي كالملح ذى شطب

(١) المرجع السابق.

(٢) الأغاني ج ٢١ ص ١٤٠.

وكل فضفاضة مضاعفة
لما التقينا مات الظلام ودا
فكلنا يستكيض صاحبه
إن حملوا لم نرم مواضعنا
من نسج داود غير مؤثب
والموت دور الرحي على القطب
عن نفسه، والنفوس فى كرب
وإن حملنا جثوا على الركب^(١)

وهى أبيات فريدة فى وصف أسلحة المسلمين، وتصوير بلائهم، لا نجد لها شبيها
فى كل ما لدينا من شعر الفتوح.

كما تروى له أبيات قالها فى محبسه لزوج سعد، عندما سألته: فيم حبسه سعد
فأجاب والله ما حبسنى فى حرام أكلته ولا شربته، ولكنى كنت صاحب شراب فى
الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني. فيثته أحيانا، ولانى قلت:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمه تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفتى بالفسلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
ليروى بخمر الحصن لحمى فإنني أسير لها من بعد ما قد أسوقها^(٢)

وهذه رواية غيل إليها، وإن كنا نلاحظ عليها شيئا، فغير معقول أن يعاقر أبو
محجن الخمر فى ميدان القتال، كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات، كما أنه لا يمكن
أن نتصور أن يحبس سعد شاعرا لأبيات قالها، وإن كنا نعتقد أن أبا محجن صادق فيما
قاله لزوج سعد، من ممارسته للخمر فى الجاهلية وإقلاعه عنها فيما بعد ذلك.

والذى نراه أن سعدا قد حبس الشاعر فى حقيقة الأمر لسبب خفى وإن كان احتج
بشعره فى الخمر ليدينه به. فأما هذا السبب فهو شغب أبى محجن مع غيره من وجوه
القوم قبل بدء القتال فى القادسية، ونسبتهم سعدا إلى الجبن، عندما قعد عن قيادة المعركة
بسبب ما ألم به من المرض. وما يؤكد هذا: اقتران حبس الشاعر بقصته مع سلمى
زوجة سعد وأرملة المثنى، فى نفس الليلة التى نسبت فيها سلمى هى الأخرى قعود

(١) الخزانة ج ١ ص ٥٥٦.

(٢) الأغانى ج ٢١ ص ١٤٠.

زوجها إلى الجبن، وما كان من ندائها «وامثيها ولا مثنى للخيل اليوم» فلطمها سعد وأغضبها، فقالت: أجبنا وغيره؟ وباتت مغاضبة له ليلة أرماث وفيها أطلقت أبا محجن ثم قصت خبره معها على سعد بعد أن صالحها^(١). والطبرى يصرح فى رواية له بأن سعدا حبس أبا محجن وسواه لأنهم اختلفوا عليه وشغبوا^(٢).

أما ما يذكر عن حده فى القادسية وشعره الذى يصر فيه على الخمر ففى رأينا أنه نتيجة لما أحاط بقصة أبى محجن من التأثيرات الشعبية، والتزيد فى أخباره كما سنرى فيما بعد.

ولنا أن نلاحظ على شعر هؤلاء الشعراء القدامى فى الفتوح برغم قلة ما وصل إلينا منه قلة التأثيرات الإسلامية، كما يتضح فيما عرضنا له من شعرهم، وما سنعرض له لدى دراستنا لنموذج منهم وهو: عمرو بن معديكرب الزبيدي. على حين نجد بعض الشعراء القدامى قد امتلأ شعرهم بهذه التأثيرات مثل النابغة الجعدي، وعروة بن زيد الخيل، وقد ادخرنا الحديث عنهما إلى حين، عندما نعرض للطوابع الإسلامية فى شعر الفتوح.

وفضلا عن هؤلاء وأولئك نجد بعض الشعراء القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لم يخلفوا لنا شيئا من شعرهم فى هذا السبيل، مثل الحطيثة والشماع.

٢- شعراء أنطقتهم الفتوح

أذكت الفتوح الإسلامية جذوة الشعر العربية، التى خبت حيناً، وقد وجدت وقوداً غذاءها فذكت، وانطلق الشعر على السنة المحججين من الشعراء المتخرجين، فقد فتحت لهم الفتوح أبواباً كثيراً يدلّفون خلالها من قواقعهم، إلى حيث يمارسون التعبير عن ذواتهم، فى ظلال فكرة الجهاد التى اجتذبهم لالأوْها فاندفعوا إلى الميادين، حيث وضعوا فروسيّتهم وشاعريّتهم فى خدمة الفكرة الإسلامية.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فإن شعراء آخرين بدأوا يظهرّون على مسرح الشعر، وإن كانت أدوارهم لا تسمو إلى أدوار الشعراء القدامى مع أن شعرهم أكثر

(١) الأغاني ج ٢١، ص ١٤٠.

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٨٨، ابن سلام ٢٢٦.

فاعلية في أداء مهمة الشعر في المعركة، ويدهش الباحث أمام كثرة الشعراء من هذا القبيل، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعا قد استحالوا شعراء في الفتوح، خاصة في الميدان الشرقي.

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون في تصورنا قسمين، أولهما: طائفة من الشعراء المغمورين، الذين لم يدع لهم شعر فيما قبل اشتراكهم في المعارك، ولم يدع ذكرهم أيضا قبل ذلك. وقد وجد هذا القبيل فرصته في الفتوح، إذ سارت بشعره الركبان، وسجل اسمه في ذاكرة العرب. وظهرت أسماء جديدة طالعتنا في كتب التاريخ والمغازي لا بريق لها ولا ألفة لدينا، كالأسود بن قطبة التميمي، والقعقاع بن عمرو، وأخيه عاصم، وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي؛ والأعور العبدى الشني، ونافع بن الأسود بن قطبة التميمي، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن مالك الزهري، وكثير بن الغريزة النهشلي، وغيرهم.

كان هؤلاء شعراء قليلي الحظ من الشهرة والذبيوع، ولم يكن لهم في ماضيهم الفنى رصيد يمكن لشخصياتهم الأدبية أن تبقى في الميدان نامية الجوانب وأن يحافظ على ذواتهم من الانطماس والضياع، هذه المحافظة التي توفرت لشخصيات الشعراء القدامى.

وبرغم هذا فإن دور هؤلاء الشعراء في شعر الفتوح هو الدور الرئيسي؛ فكثرة الشعر الذى يروى في الفتوح ينسب إليهم. وقد عبروا عن ذواتهم، ومشاعرهم، وأحاسيسهم في المواقف المختلفة التى مرت بهم تعبيرا بسيطا، أصيلا، حارا وصادقا، ويلاحظ الدارس: أن شعرهم مقطعات صغيرة متماسكة، تعبر عن موقف واحد، شأن شعر الفتوح كله، وتعتبر برغم قصرها هذا أكثر كمالا وتماسكا من غيرها من شعر الفتوح.

والقسم الثانى من هؤلاء الشعراء يشكلون ظاهرة مهمة جديدة بإنعام النظر، وهم أولئك الشعراء الذين لم يكونوا فى الأصل يرتبطون بالشعر فى قليل أو كثير، ذلك أنهم لم يكونوا ينظمون الشعر أو يعنون به ولكنهم حملوا السلاح وخاضوا المعارك، فإذا بنفوسهم تفيض بالبيت أو البيتين أو بالمقطوعة القصيرة تسرية وتفيسا وحثا لنفوسهم وتحميسا. وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة

وطليقة لتجاربيهم وتأثرهم بمواقفهم النفسية الحافلة بالمشاعر والعواطف. ولذا يغلب عليه الرجز العفوى الحار، الذي يصدر عنهم وهم يستقبلون خصومهم، وكأنهم يدقون طبول الحرب مشجعين لأنفسهم، أو وهم يتنادون، كل ينادى قبيلته أو جماعته.

وأكثر هؤلاء الفاتحين المعبرين عن أنفسهم من الجند العاديين، الذين لم يكن متوقعا منهم أن يعبروا بالشعر عن أنفسهم، ولكنهم أمام روعة الأحداث، والنهاب المشاعر، وجيشان العاطفة لم يملكوا أن يصمتوا، ففاض الشعر على ألسنتهم صادرا من وجدانهم في عفوية حارة وصادقة، وقد جنت على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم شخصيتهم المنكورة، فاختلف بينهم شعر كثير. ولم ينسب إلى أصحابه قدر كبير منه، فإذا نحن أمام عبارات تتردد لا تحمل دلالة على الشاعر، وإن كانت تجعلنا نشعر أنه شعر شاعر من هؤلاء العاديين من الجند، ك: قال أحد المسلمين، أو قال أحدهم، أو ارتجز راجز، وهكذا.

ولحسن الحظ حفظت لنا الروايات أسماء بعض هؤلاء، من مثل: أبي أحيحة القرشى، وبشر بن ذريح الشعلي، وعصام بن المقشعر، وبشر بن ربيعة، والأشعث بن عبدالحجر بن سراقه، وجندب بن عمار، وعلياء بن جحش العجلي، والأعراف بن العلم العقيلي، وغيرهم كثيرون. ولعل في أبناء الخنساء الأربعة، وما جاش على ألسنتهم من رجز دافئ في القادسية خير مثال لهؤلاء. وكذلك هؤلاء المحاربون الجرحى الذين اجتمعوا حول نخلة القادسية يناجونها وقد رقت مشاعرهم وهفت نفوسهم إلى أهليهم وديارهم شعرا بسيطا معبرا، وإن ضاعت أسماء بعضهم، فيروى البيت الأول لبجير (كذا)، والآخر لرجل من تميم، والثالث لغيلان، أخى بنى ضبة، وهكذا.

وقد أدت ظروف القتال وتشابه ظروفهم وكثرتهم إلى انطماس شخصياتهم فيما يروى لهم من شعر، واختلاط نسبة المقطعات بينهم.

فمثلا يروى صاحب الأغاني مقطوعة رائعة، تفخر ببلاء صاحبها يوم القادسية على هذا النمط:

أنخت يباب القادسية ناقتي	وسعد بن وقاص على أمير
وسعد أمير شره دون خيره	وخير أمير بالعراق جرير
وعند أمير المؤمنين نوافل	وعند المثني فضة وحرير

بياب قديس، والمكرّ عسير
يعار جناحى طائر فيطير
دلفنا لأخرى كالجبال تسير
جمال بأجمال لهن زفير^(١)

تذكر هداك الله وقع سيوفنا
عشية ود القوم لو أن بعضهم
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة
ترى القوم فيها أجمعين كأنهم

وواضح أن هذه الأبيات لجندى من جنود القادسية، يفضل فيها جرير بن عبدالله
البحلى على سعد بن أبى وقاص، ويشيد بالثنى، وكأنه يزرى بسعد. وتروى هذه
الأبيات لبشر بن ربيعة الخثعمى، صاحب جبانة بشر بالكوفة، وصديق عمرو بن
معديكرب^(٢).

ولكن صاحب الإصابة ينسب بعض هذه الأبيات إلى آخر يدعى: بشر بن ربيعة
ابن أبى رهم الجهمي^(٣)، ويروى البيت الأول منها لشاعر يدعى: بشر بن ربيعة بن منارة
الخثعمي^(٤)، على حين ينسبها صاحب فتوح البلدان إلى بشر بن ربيعة الخثعمى، مضيفا
إليها عدة أبيات، فى مطلعها تقول:

ألم خيال من أميمة موهنا وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها حجازية إن المحل شطير
ولا غرو إلا جوبها البيد فى الدجى ومن دوننا رعن أشم وقور^(٥)
ويضيف إليها يا قوت - بعد البيتين الأولين هذا البيت:

فزارت غريبا نازحا جل ماله جواد ومفتوق الغرار طرير^(٦)

(١) أغانى (ساسى) ج ١٤ ص ٣٩.

(٢) نفس المرجع.

(٣) الإصابة ج ١ / ١٧٧.

(٤) نفس المرجع

(٥) البلاذرى ص ٢٦٢.

(٦) يا قوت ج ٤ ص ٧.

كذلك يلاحظ الدارس: أن جل هؤلاء الشعراء من النزاريين، وليس بينهم إلا فيما ندر عرب من أهل اليمن، وأنهم جند العراق وما وراء العراق في الغالب الأعم، وهذا أمر متوقع، فنحن نعرف للنزاريين طبعاً شعرياً واستعداداً متهيئاً للشعر، لا يتيسر لعرب الجنوب، مما جعل الشعر يتدفق على ألسنتهم كاستجابة تلقائية لما يحسون ويشعرون.

وهناك شيء يلفت الدارس لفتناً، فإن بعض هؤلاء الذين انطلق الشعر على ألسنتهم ولم يكن لهم به عهد أو كلف أمراء مشهورون، وقواد عظام، لم تكن نتوقع إطلاقاً أن يعبروا عن أنفسهم هذا التعبير الفني، من مثل خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، والمثنى بن حارثة، وجريير بن عبدالله، وطليحة بن خويلد، والربيع بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، والنعمان بن مقرن وأخيه نعيم، والأحنف بن قيس، وهاشم بن عتبة، وزهرة بن حوية، والحكم بن عمرو التغلبي، وسلمى بن القين، والبراء بن عازب، وعبدالله بن عبدالله بن عتبان، وأبو ليلى بن فديك، وغيرهم، وهم جميعاً قواد، أو أمراء للجند، أو أصحاب أمداد وألوية. فما إن يتوجه أحدهم على رأس لواء لفتح بلدة أو كورة حتى تجيش بنفسه مشاعر الفداء والتضحية، وما إن تسقط في يده حتى يستشعر مشاعر النصر والغبطة، فينطلق الشعر على لسانه في تعبير تلقائي بسيط، ولكنه يكشف عن ذاته وما يعتلج فيها من أحاسيس.

وهكذا يخيل للدارس أن الفاتحين جميعاً قد استحالوا شعراء، حتى لم يبق أحد منهم لم يسهم في تصوير الفتوح الإسلامية. وسوف نرى نموذجين لشاعرين من شعراء الفتح، أحدهما شاعر قديم والآخر شاعر مغمور، خلقت منه الفتوح شاعراً ناضجاً، حتى ليستحق أن يلقب بشاعر الفتح الإسلامي.

الفصل الثاني

عمرو بن معديكرب الزبيدي

١ - حياته وإسلامه وخروجه للجهاد

هو فارس زبيد، وشاعرها قبل الإسلام وبعده، ويكنى: أبا ثور، واسمه: عمرو ابن معديكرب الزبيدي، ويتسبى نسبه إلى زبيد. فهو قحطاني الأصل، ويدعوه أبو عبيدة: فارس اليمن، ويقدمه على زيد الخيل، في الشدة والبأس^(١). وهو ابن خالة الزبيرقان بن بدر، وخال قيس بن مكشوح المرادي، الشاعر الفارس^(٢).

ويبدو أن أباه كان سيذا وجيها في قومه، ومن ذوى الرياسة والزعامة فيهم، وكان معروفا بالنجدة والفروسية، وأمّه امرأة من جرم، من قضاة، من بنى الحارث بن كعب، وكانت قد ارتحلت مع قومها إلى بنى زبيد، هربا من ثار لبني الحارث^(٣).

ونشأ عمرو في حجرها نشأة لاهية عابثة، واشتهر في صباه بالانصراف إلى الشراب والنهم، فلم يتوسم فيه أبوه خيرا، وأطلق عليه: لقب المائق، أى الأحق الذى لا رجاء فيه، فكان أن عرف بمائق بنى زبيد^(٤).

وتعرض عمرو فى شبابه لتجربة صعبة، صقلته وعجمت عوده، وحققت أخيرا ذاته، فرسخت مكانته فى قومه، وهى تجربة شبيهة بالتجربة التى صهر خلالها أسود بنى عبس وامرؤ القيس.

فقد حدث أن شنت قبيلة خثعم غارة على بنى زبيد، فأخذ أبوه يجمع قومه استعدادا لصدّها، وجاء عمرو إلى أخته فقال: «أشبعينى فإن غدا الكتيبة»، وجاء أبوه فأخبرته ابنته بما كان من عمرو، فكأنما استكثر عليه أبوه اهتمامه بالكتيبة فى غده، واستعداده لها، فقال: هذا المائق يقول ذلك سليه ما يشبعه فقال: فرق من ذرة، وعنز رباعية، وكان الفرق يومئذ ثلاثة أصاع. فصنع له ذلك، فأتى عليه جميعه ثم نام.

(١) الأغانى (السامى) ج ١٤ ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق وابن قتيبة ج ١ ص ٢٣٢.

(٣) الخزانة ج ٣ ص ٤٢٢.

(٤) الأغانى ج ١٤ ص ٢٤.

وفى الصباح أتهم خشعم مغيرة، واشتد القتال بين القبيلتين، واستيقظ عمرو من نومه فنظر فرأى لواء أبيه مرفوعا، فركن إلى النوم، وبعد فترة رفع رأسه ثانية فإذا بلواء أبيه قد نزل، فهم مندفعا يريد المعركة. وفى الطريق لقي أباه منهزما، فقال له: انزل عن فرسك فالיום ظلم، فقال له أبوه: إليك يا مائق، ولكن جمعا من العشيرة نصحوا معديكرب بأن يخلى بينه وبين طلبته، فإن قتل كفى مؤنته، وإن ظهر كان شرفا له، فألقى أبوه إليه سلاحه، فركب وظل يرمى خشعما بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم، وفعل ذلك مرارا، فحملت زبيد، وهزمت خشعم، واستحق عمرو يومئذ أن يلقب بفارس زبيد^(١). ويصبح عمرو وكأثما اشترى نفسه وكرامته بهذه التجربة التى غيرت وضعه فى قومه، وجعلته فارسهم بلا منازع.

وأخذت أخباره تذيب، ووقائعه ومغامراته تترى بعد ذلك، حتى أصبح معلوما أنه لا يخشى أحدا من أبطال العرب وفرسانهم، وكان يقول فى ذلك: «لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها، ما لم يلتقى حراها أو عبداها، فأما الحران: فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وأما العبدان: فأسود بنى عبس يعنى عترة والسليك بن السلكة وكلهم قد لقيت فعامر سريع الطعن على الصوت، وعتيبة أول الخيل إذا غارت، وآخرها إذا آبت، وعترة: قليل الكبوة شديد الجلب، والسليك بعيد الغارة^(٢)».

وقد تحدث عنه فرسان العرب حديثا شبيها بحديثه عنهم، فعندما سئل ماذا تقول فى العباس بن مرداس؟ قال: أقول فيه ما قال فى:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطنوا زبيدا فقد أودى بنجديها عمرو^(٣)

وقد هيات له خلأثقه الجسمانية إلى جانب ما يتمتع به من شجاعة وجرأة وحب للمغامرة أن يكون الفارس الذى لا يفضل عليه فارس من العرب^(٤)، ذلك أنه كان ذا

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٢٤، ٢٥.

(٢) الأغانى ج ١٤ ص ٢٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الإصابة ج ٥ ص ٢.

قوة خارقة وضعته بين الأبطال الأسطوريين، فرويت عنه فى ذلك روايات طريفة، تدل على شدته وضخامته ونهمه، من مثل ما يروى: من أن رجلا جاءه وهو واقف على فرس له بالكناسة بعد أن جاوز المائة فقال الرجل فى نفسه: لأنظرن ما بقى من قوة أبى ثور، وأدخل يده بين ساقيه وبين السرج، وفطن عمرو فضمهما عليه وحرك فرسه، فجعل الرجل يعدو مع الفرس، وهو لا يقدر أن يتزعزعه، حتى إذا بلغ منه، قال عمرو: يا ابن أخى، مالك؟ قال: يدى تحت ساقك، فخلى عنه وقال له: يا ابن أخى: إن فى عمرك لبقية^(١).

وكان عمر بن الخطاب إذا رآه يقول: الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا، تعجبا من عظم خلقه^(٢). وتروى له حادثة مع عمر تدل على أن نهمه لم يفارقه فى شيخوخته، إذ انطلق مرة إلى المدينة وجاء عمر فى مسألة، فإذا به يغدى الناس، وقد جفن لعشرة عشرة، فأقعد عمر مع عشرة فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو، فأقعدته مع تكملة عشرة، حتى تم له الأكل مع ثلاثين، ثم قام فقال: «يا أمير المؤمنين إنه كانت لى مآكل فى الجاهلية منعى منها الإسلام، وقد صررت فى بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسد»، قال عمر: «يا عمرو عليك حجارة من حجارة الحرة فسد به»^(٣). وكانت له أخلاق البدوى فى شجاعته ونجدته، مع غير قليل من الإسراف فى تصوير بطولته إلى درجة الكذب، وتروى فى ذلك قصة طريفة وهي: أنه كان يذهب مع الأشراف إلى الكوفة يتناشدون الأشعار، ويتذكرون أيام الناس كعادتهم، وقف مرة إلى جانب خالد بن الصقعب النهدي، وأقبل عليه يحدثه ويقول: أغرت على بنى نهد، فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب وهو يتقدمهم، فطعته طعنة فوق، وضربته بالصمصامة حتى فاضت روحه، فقال له الرجل: يا أبا ثور «أنا مقتولك الذى تحدث»، فقال عمرو: «اللهم غفرا، إنما أنت بمحدث فاستمع إنما نتحدث بمثل هذا وأشباهه لترهب هذه المعدية!»^(٤).

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٢٠.

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٢٧.

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٣١.

(٤) نفس المرجع.

وهكذا تحاول الروايات دائما أن تصور عمرا كاذبا، والحقيقة: أنه ليس كذلك على طول الخط، وإنما كان يكذب فقط حينما يتفاخر، فيغالى فى وصف شجاعته وجراته. وقد سئل فى ذلك خلف الأحمر فقال: كان عمرو يكذب باللسان ويصدق بالفعال^(١).

ويبدو أنه بعد ما تخلص من لقب المائق تخلص من بعض غروره وتهوره أيضا، فقد بدأ بذلك حياة جديدة. ويروى: أن الصمة بن بكر أغار على قومه فاستاق إبلهم، وسبى - فيمن سبى - أخت عمرو، وكانت تدعى ريحانة، فبغعه عمرو، ومعه أخوه عبدالله، وفى الطريق رجع عبدالله وتبعه عمرو وحده يناشده أن يخلى عن أخته فلم يستجب له، ولما يش رجع وهى تناديه بأعلى صوتها يا عمرو، وهو يقول وصوتها يرن فى أذنه:

امن ريحانة الداعى السميع	يؤرقنى وأصحاب هجوع
سباها الصمة الجشمى غصبا	كأن بياض غرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس	تكشف عن سواعدها الدرود
إذا لم تستطع شيئا فدعه	وجاوزه إلى ما تستطيع ^(٢)

ويذكر: أن ربيعة بن مكدوم، أحد فرسان العرب المشهورين طعن عمرا ذات مرة فألقاه عن فرسه وأخذها، ثم لقيه مرة أخرى فضربه، فوقعت الضربة فى قربوس فرسه ففقطعته، حتى عض السيف بجسد الفرس، فلم يكن من عمرو إلا أن سالمه وتركه وانصرف^(٣). فلا عجب إذا رأينا هذا الفارس المقدم يتحدث عن فراره ونجاته، حذر الموت تعقلا منه، وإيثارا للسلام، فيقول:

ولقد أجمع رجلى بها	حذر الموت وإنى لفرور
ولقد أعطفها كارهة	حين للنفس عن الموت هرير
كل ذلك منى خلق	ولكلّ أنا فى الروع جدير ^(٤)

(١) نفس المرجع.

(٢) الأغاني ١٤، ص ٣١.

(٣) نفس المرجع.

(٤) ابن قتيبة ج ١ ص ٣٣٤.

ويفسر هذا التعقل الذي صار لعمرو تسامحه وميله للمسالمة، وإيثاره للخير، فقد قتل أخوه عبدالله فأثر أن تدفع إليه ديتته، ولكن أخته اعترضت وقالت في ذلك شعرا تعيره فيه، وتعرض به:

فإن أتم لم تثاروا بأخيكم فمشسوا بأذان النعام المصلم
ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم^(١)

وهذه المسألة ليست من قبيل الجبن في طبيعة عمرو بالذات، وإنما هي نتيجة لرزانة حكيمة وتعقل، وبسبب من هذا التعقل وذلك الذكاء حث عمرو ابن أخته قيس بن مكشوح المرادى على أن ينطلق معه ليريا أمر محمد، حينما انتهى إليهما، ولما عصاه قيس ركب هو في وفد من زبيد، وانطلقوا إلى المدينة بعد أن قال في مخالفة قيس شعرا يلومه فيه:

وكان لقاؤه للنبي ﷺ سنة تسع للهجرة على أرجح الأقوال^(٢)، ثم ما نلبث حتى نسمع بارتداده ومتابعته للأسود العنسي، ويقوله في هجاء فروة بن مسيك المرادى، الذي كان على صدقات مراد:

وجدنا ملك فروة شر ملك حمار ساف منخره بقذر
وانك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر^(٣)

ونسمع بعد ذلك بأن أبا بكر رضى الله عنه عقد لواء للمهاجر بن أمية المخزومي، لقتال جنود العنسي، ولقتال عمرو بن معديكرب، وقيس بن مكشوح المرادى، ورجالهما. وبدافع من الطمع انضم للأسود العنسي، فلما قتل لم تهدأ ثورة أنصاره، بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء، لا يأوون إلى أحد، ولا يأوى إليهم أحد. وانتهاز عمرو الفرصة، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة، ما دام قد فشل في ذلك بالانضمام إلى العنسي.

(١) نفس المرجع.

(٢) الاستيعاب ص ٣٥١.

(٣) الأغاني (الساسي) ج ١٤ ص ٢٦.

وعندما استعان فيروز بأبي بكر على قيس بن يغوث وعزز أبو بكر مكانته راح قيس وعمرو يعيثان في البلاد فسادا. ولكنهما لم يلبثا أن تخاصما وتهاجيا. وأدركهما مجيء المهاجر، وأيقن أهل اليمن جميعا أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة، فانتهز عمرو الفرصة كدأبه، وأراد أن ينجو بنفسه فهاجم حليفه، الذي كان متفقا معه على لقاء المهاجر، وأخذه إليه أسيرا، وعند ذلك قبض المهاجر عليهما معا، وبعث بهما إلى أبي بكر ليرى فيهما رأيه، بعد أن أخذ سيفه المسمى بالصمصامة، وأوثقه.

ونظر الصديق إلى عمرو وقال له: «أما تخزي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور، لو نصرت هذا الدين لرفعك الله؟» فقال عمرو: «لا جرم لأفعلن، ولن أعود». فأخلى أبو بكر سبيله ورده إلى عشيرته، ليعود بعد ذلك إلى المدينة حيث يسيره الخليفة إلى الشام^(١).

وقد ميزت هذه الخلة الانتهازية في طباع عمرو أخلاقه جميعها، فإذا هو نفى ونهاز، وترتب على ذلك رقة دينه التي لازمته طول حياته، فلم يكن له من دينه ما ينهاه عن المحرمات في الإسلام. ويروى عنه في هذا الصدد أن صديقه عيينة بن حصن نزل عليه زائرا في محلة زيد، بعد بناء الكوفة، وكان عيينة نديم شرابه في الجاهلية، فوقف ينادى بيابه «أى أبا ثور». اخرج إلينا» فخرج إليه مؤتزرا مرحبا بقوله: «أنعم صباحا أبا مالك»، فقال عيينة: «أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا. السلام عليكم؟» فقال عمرو: «دعنا مما لا نعرف، انزل فإن عندي كبشا سياحا. فتزل، وعمد عمرو إلى الكبش فذبحه، وألقاه في قدر وطبخه، حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة، فثرد فيها، وأكفأ القدر عليها، فقعدا فأكلاه. ثم قال لضيفه: «أتشرب اللبن، أم ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية؟» قال عيينة: «أوليس قد حرمها الله عز وجل علينا في الإسلام؟» قال عمرو: «أنت أكبر سنا أم أنا؟» قال: «أنت»، قال: «فأنت أقدم إسلاما أم أنا؟» قال: «أنت»، قال: «فإني قد قرأت ما بين دفتي المصحف فما وجدت لها تحريما، إلا أنه قال: فهل أنتم منتهون؟ فقلنا: لا، فسكت وسكتنا». فقال عيينة: «أنت أكبر سنا وأقدم إسلاما»، فجلسا يتناشدان ويشربان، ويتذاكران أيام الجاهلية حتى أمسيا، فلما أراد عيينة الانصراف قال

(١) اسد الغابة ج ٤ ص ١٣٣.

عمرو: «لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنها لو صمة عار»، فأمر بناقة عظيمة له، وبأربعة آلاف درهم، ورفض عينة المال، وأخذ الناقة وانصرف عليها ينشد:

جزيت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى المزدار والمتضيف
قريت فأكرمت القرى وأفدتنا تحية علم لم تكن قط تعرف
وقلت: حلال أن ندير مدامة كلون انعقاق البرق والليل مسدف
وقدمت فيها حجة عريية ترد إلى الإنصاف من ليس ينصف
وأنت لنا - والله ذى العرش - قدوة إذا صدنا عن شربها المتكلف
يقول أبو ثور: أحل حرامها وقول أبي ثور أسد وأعرف^(١)

وهكذا - يؤكد: أن الإسلام لم يتعمق روحه، كما لم يعن هو بتعمقه، فظل على الخمر والتنادم عليها بذكر أيام الجاهلية وما يعرف ويألف من كلماتها، فى الوقت الذى يرفض فيه تحية الإسلام التى لا يالفها. ثم هو يتحلل على الدين فتوى يحلل بها حراما بغير تخرج متظرفا، وكأنما يخدع نفسه.

وربما نتساءل عن السبب الذى من أجله أبقى عليه المهاجر فلم يقتله، وهو أحد رءوس الفتنة فى ثورة اليمن وارتداد أهله، وعن السبب الذى من أجله أبقى عليه الصديق كذلك. فلا ريب فى أن المهاجر خشى ما قد يترتب عليه قتله لعمرو، وهو يعرف مكانته فى قومه. ولا ريب أيضا فى أن أبا بكر رأى بثاقب رأيه ما يمكن أن يحققه عمرو إذا ما كان سيفا من سيوف الإسلام، وتجلى ذلك فى معاتبته، ودعوته الصريحة إلى نصرة دين الله.

وبرغم أن عمرا أبلى فى نصرة هذا الدين بلاء راثعا، فقد ظل رقيق الدين طوال حياته، لا يرجع عن اتباع هواه، ولا يرتدع، فظل يعاقر الخمر، ولكن ذلك لم يكن ليسلبه قدره فى الانتصار للدين، حتى ليقول عنه سعد بن أبى وقاص حينما وقع فى حد الخمر ذات مرة: «لقد كان له يوم القادسية موطن صميم الفناء شديد النكاية للعدو» فقيل لسعد: فقيس بن مكشوح، فقال: «هذا أبذل لنفسه من قيس»^(٢).

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٢٩.

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٣١.

ولم يكن عمرو شديد النكاية بالعدو لقوة إيمانه بالإسلام، ولا لاعتقاده بوجوب الذب عنه، واكتساب أرض جديدة له، ولدعوة العالمين إليه. وإنما كان قوى الإيمان بنفسه فحسب، مخلصا لماضيه وحده، ولبطولاته السابقة، فهو حينما يبذل نفسه لا يبذلها من أجل العقيدة أو الفكرة، وإنما من أجل مجده الشخصي، ومن أجل اسمه الذى لا يزال يتصوأ بمغامراته فى الجاهلية، فإذا به يعتز بهذا الماضى اعتزازا بعيدا، يصور ذلك قوله:

وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت عنه الشجاعة بالأمس

ولا ريب فى أن ولاة أمور المسلمين قد عرفوا عنه هذا، فظلموا على تألفه واصطناعه، وإن كانت ثقتهم به غير متينة، لأنهم أيقنوا فيه أنه ربما لا يخلص فى نصرة الدين، ولكنه لا يفرط فى الإخلاص لنفسه ولا اسمه، مهما كان ضعف إيمانه.

ولهذا نرى ابن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى النعمان بن مقرن فى نهاوند: بأن يستشيريه فى كل أمور الحرب على ألا يوليه عملا^(١). ونراه فى القادسية وسعد يقسم الفياء فيصل عطاء الفارس ستة آلاف يقبضها عمرو، ثم يزيده سعد فى أهل البلاء خمسمائة، ولكنه لا يقنع، إذ تبقى بعد ذلك شيء كثير، رأى سعد أن يرسل به إلى المدينة ليسأل الخليفة عما يفعل به، فإمر عمر: «بأن رد على المسلمين الخمس، وأعط من لحق بك ولم يشهد الواقعة» ونفذ سعد أمر عمر، فبقى لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله عما يفعل به، فأمر عمر: بأن يوزع فى حملة القرآن. كل هذا وعمرو يتململ. وبينما سعد ينفذ أمر الخليفة إذ أتاه عمرو طامعا فى أن يكون له حظ مع حملة القرآن. وسأله سعد: ما معك من كتاب الله تعالى؟ فحك عمرو رأسه ثم أجاب بعد لحظات: إني أسلمت باليمن ثم غزوت، فشغلت عن حفظ القرآن، عند ذلك أبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيبا، فإذا عمرو يقول:

إذا قتلنا ولا ييكى لنا أحد قالت قريش: ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير^(٢)

(١) ذيل الأغانى ج ١ ص ١٤٤.

(٢) الأغانى ج ١٤ ص ٣٩.

وكتب سعد بهذا إلى عمر، فكتب عمر إليه: بأن يعطيه على بلائه، فأعطاه ألفي درهم.

وكان عمر بن الخطاب يثق بقدرته الحربية ثقة كبيرة، ويتجلى ذلك في المقابلة التي تمت بينهما، حين أرسله إليه سعد بن أبي وقاص عقب القادسية وراح عمر يسأله عن أحوال المجاهدين، وعن سعد في جنده فقال عمرو: هو لهم كالأب. . أعرابي في نمرته، أسد في تامورته، نبطي في حبوته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفر من السرية، وينقل إلينا حقنا كما تنقل الذرة، وكان سعد قد كتب إلى الخليفة يثنى على عمرو ويذكر بلائه فقال عمر: «لشد ما تقرضت ما الثناء» ثم أخذ يسأله عن الحرب: فقال عمرو: مرة المذاق إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف فيها تلف، وهي كما يقول الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشب ضرامها عادت عجوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

فعاد عمر يسأله عن السلاح فقال عمرو: «الرمح أخوك، وربما خانك، والنبل منايا تخطئ وتصيب، والترس هو المجن، وعليه تدور الدوائر، والدرع مشغلة للفارس، متعبة للراجل، وإنها لحصن حصين». ثم سأله عن السيف فقال: «ثم قارعتك أمك عن الشكل». فقال عمر: «بل أمك قارعتك» فقال عمرو: «الحمى أضرعتني»^(١). وخرج عمرو والخليفة يعلوه بالدرة، ثم ما لبث أن قال عند منصرفه في الطريق:

أتوعدني كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أو ذو نواس
فكم قد كان قبلك من مليك عظيم ظاهر الجبروت قاس
فأصبح أهله بادوا، وأمسي ينقل من أناس في أناس
فلا يغررك ملكك كل ملك يصبر مذلة بعد الشمس^(٢)

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ٣٣٣-٣٣٤، البلاذري ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٧.

وتكشف الآيات عن جاهلية في نفسه. وتفيض الروايات بذكر بلاء عمرو وتفانيه في الفتح، مما يثبت بعد نظر أبي بكر يوم وهبه حياته، فكان عند حسن ظنه، فأبلى في كل وقعة شهدها بلاء حسنا، شهد اليرموك، وقيل عنه يومها: إنه كان أشرف رجل برز، ذلك أنه خرج إليه عليج فقتله، ثم آخر فقتله، وهكذا. . وانهزم الروم ولم يتوقف، وتبعهم حتى أفنى جمعا عظيما منهم. ولكن الرواسب الجاهلية تبرز في سلوكه عندما ينصرف إلى خباء له فينزل ثم يدعو بالجفان، ويدعو من حوله، والناس يتساءلون عنه فيقال لهم: إنه عمرو بن معديكرب فارس اليمن^(١) ويرغم أن عينه أصيبت يوم اليرموك فإن ذلك لم يثنه عن مواصلة الجهاد^(٢).

وتحول عمرو إلى العراق، فشهد مع أبي عبيد بن مسعود الثقفي وقعة الجسر^(٣)، ثم شهد مع سعد بن أبي وقاص القادسية. وبالطبع لا بد أن يكون قد شهد مع المثنى المعارك التي كانت بين الجسر والقادسية، وإن كنا لا نجد له أخبارا فيها ولا شعرا. وكتب عمر إلى سعد بالقادسية بأن يصدر عن مشورة عمرو في الحرب^(٤)، وعده عمر بمقام ألف رجل^(٥)، وأخذ عمرو يباشر المعركة، ويمر بين صفوف المسلمين، يحمسهم ويدفعهم بندااته: «كونوا أسودا أشداء، فإن الفارس إذا ألقى رمحه تيس». . «ألزموا خراطين الفيلة السيوف، فإنها ليس لها مقتل إلا خراطينها» وكاد أن يقتل أكثر من مرة، إذ أصابته فجأة في سية قوسه نشابة، فحمل على من رماه فطعنه ودق صلبه، ونزل إليه فأخذ سلبه^(٦).

ويروى: أنه حمل في هذا اليوم وحده، وجعل يضرب الفرس حتى لحق به المسلمون، وقد أحدق به الأعداء وهو يضرب فيهم بسيفه، فنحوهم عنه^(٧). كما يذكر:

(١) الإصابة ج ٥ ص ١٩.

(٢) نفس المرجع.

(٣) الاستيعاب ص ٣٥٢.

(٤) أسد الغابة ج ٤ ص ١٣٤.

(٥) الإصابة ج ٥ ص ١٩.

(٦) نفس المرجع.

(٧) نفس المرجع.

أنه كانت له طريقة بارعة وعجيبة في قتال الفرس، إذ يقاتل فارساً ثم يقتحم عن فرسه فيربط مقوده في حقوه، فيقاتل آخر، وهكذا كان يفعل بالعدو الأفاعيل^(١). وأنه شد في نفر من المسلمين يضربون خراطيم الفيلة حتى بلغوا رستم فضرب فيله فجذم عرقوبيه فسقط، وسقط رستم، وحمل على فرس، لو قتل بين نفر من الفرسان تنازعوا دمه، وقال عمرو في ذلك ينسب هذا العمل إلى نفسه:

ألم بسلمى قبل أن تظعنا إن لنا من حبها ديدنا
 قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا
 شككت بالرمح حيازيمه والخيل تعدو زيماً بيننا^(٢)

وعجيب أن يفعل عمرو هذه الأفاعيل، وهو طاعن في السن، حتى إنه يروى تجاوزه المائة في القادسية، وما كان من ضخامة جسده، فكان آخر قومه في عبور نهر القادسية، وفرسه تن من ثقله^(٣).

وتروى بعض الروايات أنه قد استشهد بالقادسية. أو مات عطشاً بها^(٤)، ولكن هذه الرواية لا تتفق وما يذكر متواتراً عن بلائه في نهاوند، وما كان من استشارته في المؤتمر الذي عقده النعمان بن مقرن للتدبير في إخراج الفرس من حصونهم، بناء على أمر الخليفة، الذي أرسل إلى النعمان: «بأن في جندك عمرو بن معديكرب، وطيحة بن خويلد، فأحضرهما، وشاورهما في أمر الحرب». ويذكر أنه كان له رأى صائب في الخطة التي قررت، وعندما قتل النعمان، وتولى حذيفة تراجع المسلمون، ولكن عمراً ظل يقاتل في أهل النجدات من المسلمين، إلى أن جاءه كمي القوم فاعتنقه عمرو وقتله، وأصيب بجراحة أثبتته، وفتح الله على المسلمين، فأخذ عمرو ينشد شعراً، يفخر فيه ببلائه وهو يحضر، ودهمه الفالج أثناء ذلك فمات به، عند قرية تدعى «رودة» من قرى نهاوند، فرثاه أحد المسلمين بقوله:

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٢٨.

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٢٩.

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٢٨.

لقد غادر الركبان حين تحملوا
 فقل لزيد بل لمذبح كلها
 «بروذة» شخصاً لا جباناً ولا عمراً
 رزتم أبا ثور قريع الوغى عمراً
 فإن تجزعوا لا يغن ذلك عنكموا
 ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبراً^(١)

وتذكر بعض الروايات: أن شاعرنا عمّر بعد نهاوند حتى شهد صفين، ومات في عهد معاوية. ولكن هذه الرواية تبدو مدفوعة إلى المغالاة في امتداد عمره، ولو صح أنه شهد القادسية وهو ابن مائة وعشر – كما يروى أبو عبيدة فإنه يكون قد مات وعمره قرن ونصف، والصحيح الذي يمكن أن يتفق وكثرة الروايات الموثوق بها أنه مات مفلوجاً بروذة كما تقدم^(٢).

٢- شعره في الجاهلية

لسنا نعرف على وجه اليقين أو الظن الوقت الذي بدأ فيه عمرو الشعر، فإن شعره لا يدلنا على شيء من هذا، والروايات التي تروى عنه لا تتعرض لهذا الجانب، وكأنما وجد – هكذا – شاعراً.

وليس لعمرو ديوان يجمع أشعاره مرتبة، أو مؤرخة بمناسبةاتها، أو غير مرتبة ومؤرخة. وإنما نستطيع أن نعرف على وجه التقريب حداً فاصلاً بين شعره في الجاهلية وشعره في الإسلام، وإن قابلت في سبيل ذلك مشكلات، سببها: أن حياته قد ضخمت، بفعل الروايات التي كادت تجعل منه بطلاً من أبطال الأساطير، بما حشد فيه من جوانب البطولة، وتصوير ما أوتى من قوة خارقة، وما جبل عليه من عبث وسبب – آخر – هو: تشابه حياته في الجاهلية بحياته في الإسلام، بما طبع عليه من حب شديد لنفسه واتخاذها منهاجاً خاصاً لحياته، غير متقيد فيه بشيء من تعاليم الإسلام.

وأول ما يطالعنا في شعر عمرو لأول وهلة: قلة مجموع هذا الشعر، وحتماً أن يكون قد ضاع منه الكثير، فكونه زيدياً من أهل اليمن لا يبرر قلة شعره على هذه الصورة رغم ما يبدو في طبعه من ثراء وخصب.

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ١٣٤، الاستيعاب ص ٣٥٢.

(٢) أسد الغابة، ج ٤/١٣٤، الإصابة ج ٥/٢٠، ابن قتيبة ج ١ ص ٢٣٤، الأغاني ج ١٤/٣١، ذيل الأملالي ج ١/١٤٤.

ومن شعره المشهور: عينته التي مطلعها:

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

وهي من الشعر الذي غنى به وزيد فيه، لما فيها من عاطفة جياشة، وإن كانت حزينته تبلغ في حزنها حد اليأس، وتطبعك لأول وهلة بصدق الشاعر مع نفسه وعواطفه، وتصريحه بحرج موقفه، دون مغالطة أو تزييف أو تلفيق للأعداء، فهو يصور الأزمة في وجدانه على حقيقتها، ويدلى بأسفه الذي يهيب به ويؤرقه وقد هجع الناس، وأخته سيئة استحلت، وهو لا يملك لها نجاة، فحولها فرسان أشداء، وبلغ اليأس بنفسه مداه، فيلقى بخلاصة تجربته في حكمة بالغة، وكأنه قد أراح نفسه من أزمته:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع (١)

وهذا الصدق الشعوري الذي يتجلى في هذه الأبيات يعيننا على تفهم شعره في مواطن أخرى، يكون فيها صادقا مع نفسه، حتى ولو كان مفتخرا معتزا بقوته، ونعجب من هذا الصدق الشعوري وقد عرفنا عمرا يغالى في حديثه عن نفسه، ويكذب في ذلك متفاخرا، ولكننا نجده في شعره صادقا في وصف مشاعره.

قال في أبي المرادى - وكان ادعى مسانده في غزاة، وطالبه بنصيبه، وتهده

بالقتل:

وكل مقلص سلس القياد	أعاذل شكنتى بدنى ورمحي
وأقنرح عساتقى ثقل الزناد	أعاذل إنما أفنى شيبابي
وددت وأينما منى مرادي	تمناني ليلقناني أبي
تكشف شحم قلبك عن سواد	ولو لاقيتنى ومعى سلاحي
عذيرك من خليلك من مراد	أريد حبهاء ويريد قتلي
كأن قتيورها حلق الجراد	تمناني وسابغتي دلاص

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٣١.

وسيفى كان من عهد ابن صد	تخيره الفتى من قوم عاد
ورمحي العنبرى تخال فيه	سنانا مثل مقباس الزناد
وعجيزة يزل اللبىد عنها	أمر سراتها حلق الجياد
إذا ضربت سمعت لها أريزا	كوقع القطر فى الأدم الجلاذ
إذا لوجدت خالك غير نكس	ولا متعلما قبل الوجد
يقلب للأمور شرنبشات	بأظفار سفارزها حداد ^(١)

فكل سلاحه بدن ورمح وفرس عظيمة مطواع، وقد أفنى شبابه على هذه الصورة، حتى قرّح الزناد كاهله، وقد تمناه أبى ليقتله، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، ولو لاقاه لعجز عن مواجهته، حتى يأكل الحقد قلبه، وينكشف شحمه عما به من الحقد، وهو لم يصنع شيئاً يستوجب هذا الوعيد، وإنما أراد أن يمن عليه، فهل يكون جزاؤه التهديد بالقتل وهل تدبر أبى أمره وعرف من هو الذى يتوعده ويتهدده إنه فارس ذو درع حصينة واسعة براءة ملساء، تشبه مساميرها حلق الجراد، وسيف عريق ورمح عنبرية ذات أسنة نارية، وفرس قوية مدرية، ولو قابله أبى لما وجدته دنيئا، ولا ساقطا ولا ضعيفا، وإنما هو قوى قادر ماهر، لا يعبأ بالمللمات. وتروى هذه الأبيات على أنه قالها لاخته، التى عبرته لإبطائه فى الثأر لأخيه عبدالله، ولكن الأبيات نفسها لا توحى بهذا، بدليل قوله:

إذا لوجدت خالك غير نكس	ولا متعلما قبل الوجد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي	ويبقى قبل زاد القوم زادي
فمن ذا عاذرى من ذى سفاه	يرود بنفسه منى المرادي ^(٢)

ويتمتع كل شعره الجاهلى بصفة الصدق، المتمزج بحرارة التعبير المتدفق البعيد عن المغالاة، ويذهب كله بلا استثناء فى الاعتزاز بمهارته الحربية، والفخر بشجاعته، ووصف تأهبه للحرب.

(١) الأغاني ج ١٤، ص ٣٢.

(٢) الإصابة ج ٥/٢١.

وتحيط بشعره غالبا مشكلات فى دوافع القصيد ومناسبته . فتروى روايات مختلفة فى ظروف كل قصيدة، فمثلا تروى له قصيدة فى اثوائه لقاء النبى ﷺ، ومخالفة قيس ابن مكشوح المرادى عن رأيه حيث يقول:

أمرتك يوم ذى صنعاء أمرا بينا رشده
أمرتك باتقاء الله تأتيه وتتعدده
فكنت كذى الحمير غرة من إيره وتده^(١)

وجاء فى رواية أخرى: أنه قال هذه القصيدة لولده، وأن عمرا قد عرض نفسه ذات مرة على امرأة من كندة فأخبرته: أنها زوجة، ووصفت له زوجها فتابعها، حتى لقي زوجها فقتله، واقترب بها، وطلب إليها أن تسمى ابنتها منه الخزر. ولما شب الخزر راح يتعرف إلى أبيه، ودفعه قوم من صنعاء إلى أن يحارب أباه، فسار إليه فى جمع منهم وشد على أبيه، لكنه قتله وقال:

تمتاني ليقتلني وأنت لذاك معتمده
فلو لاقيتم فرسى وفوق سراته أسده
إذا للقيتم شئن البرائن نايا كيده
ظلوم الشرك فيما أعلقت أظفاره ويده
يلوث القرن إذا لاقاه يوما ثم يضطهده
يزيف كما يزيف الفحل فوق شثونه زبده
ويذب عن مشافره البعوض ممنعا بلده
ولو أبصرت ما جمعت فوق الورد تزده
رأيت مخاضة زغفا وتركها مبهما سرده
وصمصاما بكفى لا يذوق الماء من يرده
شمائل جده وكذاك أشبهه والدا ولده

(١) الاغانى ١٤ / ٢٥ .

أمرتك يوم ذى صنعا أمرا بينا رشده
فعال الخير تأتيه فتفعله وتعمده
فكنت كذى الحمير غره من غيره وتده
ولو أبصرت والبصر الميين قل من يجده
إذاً لعلمت أن أباك ليث فوقه لبده^(١)

وواضح: أن القصيدة لا علاقة لها بإسلامه، فهي جاهلية، وتحدث عن هذا الموقف الذى وقفه منه ولده، وواضح أيضا أن قوله: «فعال الخير» أنسب للسياق عن الرواية التى يقول فيها: «اتقاء الله»، فإن عمرا أبعد إنسان عن هذا القول. وهو يشير: إلى أن الحديث موجه إلى ابنه فى غير موضع فى الأبيات، حينما يقول: إن شمائله هى شمائل جد ابنه، وهكذا أشبه والدا ولده. وعندما يقول له فى نهاية القصيدة: إذا لعلمت أن أباك..

وهذا الخلط بين شعره الجاهلى والإسلامى منه نجد له أمثلة كثيرة فى شعره، ولكن أهم هذه القصائد ما يختلط من شعره الجاهلى بشعره فى الفتوح خاصة.

إذ يروى: أن نونيته المطولة صدرت عنه فى الفتوح، ويصف فيها بلاءه فى القادسية ونهاوند، والقصيدة تجرى على هذا النمط:

لمن الديار بروضة السلان	فالرقتين فجانب الصمان
لعبت بها هوج الرياح وبدلت	بعد الأئیس مكانس الشیوان
فكان ما أبقين من آياتها	رقم ينمق بالأكف يمائي
دار لعمره إذ تريك مفلجا	عذب المذاقة واضح الألوان
خضرا يشبه ورده وبياضه	بالثلج أو بمنور القحوان
وكان طعم مدامة جبلية	بالمسك والكافور والريحان
والشهد شيب بماء ورد بارد	منها على المتفسس الوهتان
وأغر مصقولا وعينى جوذر	ومقلدا كمقلد الأدمان
سنت عليه قلائدا منظومة	بالشذر والياقوت والمرجان

(١) ديل الأمالى ج ١ ص ١٥٦.

فالقصيدة تبدأ بذلك التقليد الجاهلى من بكاء الأطلال، ذلك التقليد الذى لا نجد
فى واحدة من قصائد الفتوح على الإطلاق، ثم يثنى الشاعر بالغزل بمن تدعى «عمرة»
غزلا حسيا محضاً، يتحدث فيه عن طعم مذاقها، ويشبهه بمذاق الخمر على المسك
والكافور والريحان، أو الشهد، ويتقل من قمها إلى عينيها، إلى جيدها.

ويتقل الشاعر بعد ذلك إلى ما كان من أيام الحرب فى الجاهلية ذات يوم بين كندة
وزبيد فيقول:

ولقد تعارفت الضباب وجعفر
سيا على القعدات تخفق فوقهم
والأشعث الكندى حين سما لنا
قباد الجياد على وجاها شذبا
حتى إذا أسرى وأوب دوننا
أضحى وقد كانت عليه بلادنا
فدعا فسومها وأيقن أنه
لما رأى الجمع المصبح خيله
فزعوا إلى الحصن المذاكى عندهم
خيل مربطة على أعلافها
وسعت نساؤهم بكل مفاضة
فقدفهن على كهول سادة
حتى إذا خفت الدعاء وصدعت
نشدوا البقية وافتدوا من وقعنا
واستسلموا بعد القتال وإنما
فأصيب فى تسعين من أشرفهم
فشتا وقاظ رئيس كندة عندنا

وينو أبى بكر بنو الهيصان
رايات أبيض كالفنيق هجان
من حضرموت مجنب الذكران
قب البطون نواحل الأبدان
من حضرموت إلى قضيب يمان
محفوفة كحضيرة البستان
لا شك يوم تسالف وطعان
مبثوثة ككواسر العقبان
وسط البيوت يردن فى الأرسان
يقسفين دون الحى بالألبان
جدلاء سايغة وبالأبدان
وعلى شرامخة من الشبان
قتلى كمتعر من الغلان
بالركض فى الأدغال والقيعان
يترقبون ترقب الحملان
أسرى مصفدة إلى الأذقان
فى غير منقصه وغير هوان^(١)

(١) ذيل الامالى ج ١ ص ١٤٥.

فهذه مقدرة مذهلة في الوصف القصصى، والسرذ البارع، وفي صورة حركية،
ترسم التفاصيل الدقيقة في براعة تأخذ بالألباب، وتجعلنا نعتبره نواة صالحة للشعر
الملحمى، الذى لم يتطور على مر العصور.

فقد بدأ بتصوير هذا التحالف بين الأعداء واتفاقهم، وكيف استقلوا تخفق فوق
رءوسهم الرايات، وقد تجنب رئيسهم العفن، وسار متخفياً، حتى أتتهكوا جيادهم من
طول السرى والتأويب، من حضرموت إلى ديار الشاعر التى أحاطت بهم من كل
جانب.

وهنا يدرك رئيس الكندة أن اليوم ظلم، فيبث خيله فى كل مكان، ويفتح أهل
الحى أعينهم على هذا المشهد، فيهرعون إلى جيادهم المتأهبة دائماً، يعينهم نساؤهم فى
اتخاذ أهبتهم، ويهين بهن أن يتولوا أمر هؤلاء المغيرين، وينشب القتال، فتفعل السيوف
فعلها، إلى أن يخفت صوت الفرسان، وتتكشف المعركة عن قتلى كثيرين، غير من فر
وافتدى نفسه بالركض بين الأدغال، وغير من أسر من الأشراف الذين بلغ عددهم
التسعين، صفدوا حتى أذقانهم بالسلاسل، وعلى رأسهم رئيسهم الذى قضى الصيف
والشتاء أسيراً فى ديار الشاعر، وإن لاقى من التكريم والإعزاز ما يشهد برفعة شأنهم.

وبعد ذلك نجد أبياتا عن القادسية وبلاء الشاعر وقومه فيها، تقول:

والقادسية حين زاحم رستم	كنا الحماة بهن كالأشطان
الضارين بكل أبيض مخذم	والطاعنين مجامع الأصفان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً	ينوى الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قرى السواد وفارس	والسهل والأجبال من مكران ^(١)

ولسنا نعرف بحق من هو ربيع الذى يشير إليه، فليس بين قواد المسلمين الذين
استباحوا قرى السواد وفارس ومكران من يدعى بهذا الاسم، ولكننا نفضل رواية أخرى
للبيتين الأخيرين، على هذا النمط الذى يقول:

(١) ذيل الأمالى ج ١ ص ١٤٥.

قوم هو ضربوا الجبابر إذ بغوا
بالمشرفية من بني ساسان
حتى استبيح قرى السواد وفارس
والسهل والأجبال من مكران^(١)

وعلى كلتا الروايتين يلاحظ الداس مغايرة هذه الأبيات التي تتحدث عن القادسية في صياغتها للقصيدة كلها، وعدم التساوق في المعنى، فالقصيدة وحدة موضوعية قائمة بذاتها، منتهية بحكم صياغتها الفنية عندما انتهت إليه من تصوير المعركة وانتهائها بأسر أشرفها، ورئيسها الذي قاط وشتا عندهم، ولا تحمل هذه الأبيات التقريرية الأخيرة بحال.

ويقينا فالقصيدة بالصورة التي تروى بها مشتملة على هذه الأبيات، قد صنعت في عصرين مختلفين، في الجاهلية والإسلام بمعنى: أن الأبيات الأخيرة أضيفت فيما بعد الفتوح بفعل الرواة، شأنها في ذلك شأن قصيدة ربيعة بن مقروم، وقصيدة عبدة بن الطيب، ومن قبلهما حسان بن ثابت في قصيدته الهمزية، التي تحدث فيها عن فتح مكة وذكر فيها الخمر.

وقصيدة عمرو جلى فيها طابعها الجاهلى، في أسلوبها، ورسالتها، وقوة تماسكها، وتصويرها الدقيق، وسردها المتأنى، الذى يدل على روية وفسحة فى الوقت أتحت للشاعر، مما لا يتيسر لتلك الأبيات الأخيرة فى القادسية، والتي يظهر فى تقريرتها وقصرها أنها صنعت فى ظروف قلقة، هى ظروف الفتوح.

وهكذا نستطيع أن نعدد الخصائص الفنية لشعره الجاهلى، وهى تنحصر فى نزوع الشاعر إلى الصدق الشعورى الدافق مع نفسه دون ما مبالغة، وفى قدرته القصصية الفائقة، ودقته فى التصوير، واقتداره على رسم الصور الحركية بمهارة، كل ذلك فى أسلوب قوى جزل، تحوطه عاطفة جياشة، وإن كان بعيدا عن التعلق بالصور الخيالية، مبالا إلى استعمال الصور المحسوسة للتعبير عن أفكاره وعواطفه.

وموضوعات شعره الجاهلى لا تخرج فى مجموعها عن الافتخار ببطولته وتصويره استعدادة للحرب، ووصف بلائه فيها ووصف أيام زيد فى الجاهلية.

(١) ياقوت ج ٤ ص ٩١٤.

٣- شعره فى الفتوح

وشعر عمرو فى الفتوح قليل جدا، لا يتجاوز عدة مقطعات قصيرة، وهذه ظاهرة عامة ينضوى تحتها شعر الشعراء القدامى، الذين اشتركوا فى الفتوح جميعها، فى قلة ما خلفوا من آثار فى شعر الفتح، وينضوى تحتها شعر الفتح كله فى قلة عدد الأبيات التى تحتويها المقطوعة.

ولا يطالع الدارس قصيدة واحدة فى شعر الفتح طال نفسها أو تعددت أغراضها - كقصائد الجاهلية - فلا ظروف القتال من جانب، ولا نفسية المقاتل من جانب آخر تتيحان امتداد نفس الشاعر، فتحوّلت القصائد من تم إلى مقطعات لاهثة، يصب فيها الشاعر عواطف اللحظة ومشاعرها فى سرعة خاطفة، كتلك التى صب فيها عمرو خبر قتله لرستم فى ثلاثة أبيات، اشتملت على: تزويد صاحبه بإقراء سلمى صاحبه تحيته، وأن يذكره عندها، ويذكر حبه لها، وأن ينقل إليها خبر قتله رستم وقصر هذا الشرف عليه وحده دون غيره. ثم يصف الطريقة التى فتك بها بهذا القائد. كل هذا فى تلك الأبيات القليلة التى تقول:

إن لنا من حبها ديدنا	ألم بسلمى قبل أن تظعنا
ما قطر الفارس إلا أنا	قد علمت سلمى وجاراتها
والخيل تعدو زيمًا بيننا ^(١)	شككت بالرمح حيازيمه

ولا ريب فى أن القارئ لهذه الأبيات يستشعر حرارة الشاعر وصدقه، هذه الخاصية التى انتقلت معه من شعره الجاهلى إلى شعره الإسلامى.

ولم يقتصر ذلك على الشعر فحسب، وإنما نجد صدقه هذا وحرارة تعبيره فى أبيات الرجز المقرّدة. وكان علج فى القادسية قد رماه بنشابة وقعت بين كتفيه فلم تنفذ من درعه الحصينة، فأخذ به يعتقه، فسقطا معا على الأرض، وقتله عمرو وسلبه، ثم أخذ يعمل سيفه فى الفرس، فى حرارة تشبه حرارته فى تعبيره، عندما رأى الأعداء يتساقطون تحت وقع ضرباته، فصاح مغتبطًا:

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٢٨.

آل زبيد إنهم يموتون^(١)

ويبلغ صدقه فى عواطفه حد الصراحة الساخرة التى واجه بها سعد بن أبى وقاص
لما رفض أن يجعل له نصيبا بين حملة القرآن فقال له معرضا بما بين القحطانية وقريش،
متهما قائده بمحاباة القرشيين، إذ قال له:

إذا قتلنا ولا ييكنى لنا أحد
نعطى السوية من طعن له نفذ
قالت قريش ألا تلك المقادير
ولا سوية إذ تعطى الدنانير^(٢)

وغير هذه الأبيات القليلة، وما أشرنا إليه من أبياته فى القادسية، التى أضيفت إلى
نونيته لا نعرف له شعرا فى الفتوح، برغم شهوده المعارك المهمة فى تاريخها، فقد شهد
اليرموك والجزر، ولكننا لا نجد له شعرا فيهما، وكذلك لا نجد له شعرا فى نهاوند.

ويلاحظ الدارس: أن عمرا وغيره من الشعراء القدامى كانوا أبعد الشعراء الذين
اشتركوا فى الفتوح عن التأثر بأية خصائص إسلامية فى شعرهم، إذا ما أقرنا شعرهم
بشعر غيرهم من الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح، فتغنوا بالمثل الإسلامية، وكان شعرهم
معرضا للخصائص التى اكتسبها الشعر من الإسلام.

وهكذا يمكننا القول: بأن شعر عمرو لم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة
التي عاشها فى الفتوح، وبرغم ضياع شعره فيما نعتقد فإنه لجلى أن شعره الإسلامى فى
الفتوح لو كان وجد بتمامه لما افترق فى شيء عن شعره الجاهلى، وإنما هو استبدل بأيام
زبيد أياما إسلامية، عبر فيها نفس التعبير الذى كان يعبر به عن غزوات قومه فى
الجاهلية. ولم يتأثر شعره بالإسلام ولا بالفتوحات، كما لم تتأثر حياته ذاتها إلا بهذه
التأثيرات العامة، التى تعرض لها كل شعر الفتوح، من انكماش القصيد، وسرعته،
وتدفقه فى إيجاز وحرارة، فضلا عن صدقه الشعورى، وحرارة تعبيره، التى لازمت
شعره فى الفتوح.

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٢٨.

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ١١.

obeikandi.com

الفصل الثالث

القعقاع بن عمرو التميمي

١ - حياته وخروجه للجهاد

هو خير نموذج لهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر، وإنه لمن النادر أن تصادف شاعرا مثله، له نفس خصائصه أو خصائص قريية منها.

كانت حياته كلها هجرة في سبيل الله ورسوله وفي طاعتهما، ويضعه بعض المصنفين في آخر طبقة المخضرمين من الفرسان الشجعان^(١)، لكننا لا نعرف شيئا واضحا عن جاهليته يفيد معرفة بشأته وبماضيه، إذ تخلو جميع المصادر من أية إشارة إلى شيء من هذا القبيل. فلا نعرف له من ثم أدنى اهتمام بشيء قبل الإسلام، وليس له ماض ينميه ولا اسم يعتز به، ويعيش على الإخلاص له، ولا شيء ثمت إلا إسلامه وإيمانه القوى وعقيدته الراسخة، حتى ليخيل للدارس أن حياته لم تبدأ إلا بالإسلام.

وهكذا نجد جميع المصادر تخلو من الإشارة العابرة إلى مولده ونشأته، وإنما تبتدئ جميعها من نقطة واحدة، هي إسلامه، ذلك أنه الحقيقة الكبيرة البارزة والفاعلة في حياته كلها.

فقد أسلم القعقاع، وكانت له صحبة^(٢)، وشهد وفاة النبي ﷺ، وكان الذي نقل إلى المسلمين آنذاك نبأ اجتماع الأنصار على استخلاف سعد بن عبادة^(٣). وظهر من هذه الروايات: أن القعقاع قد نشأ في حجر النبي ﷺ وكنف صحابته فتي من فتيان المسلمين، الذين آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى، فتأدبوا بأداب الإسلام، وتعلموا في مدرسة الرسول ﷺ، ورسخ اعتقادهم بما أعده الله للمؤمنين المجاهدين من عباده،

(١) المستطرف ج ١ ص ١٧٩.

(٢) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

(٣) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

فازدادوا بأسا، وامتلاوا شجاعة، فباعوا أنفسهم في سبيل الله وفي طاعته، هكذا تعلموا في مدرسة الوحي ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبَعِدْ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد].

راح الفتى المؤمن في هذا الجو يكتسب صفات الفارس الإسلامى، ويسأله رسول الله ﷺ ذات يوم: «ماذا أعددت للجهاد يا قعقاع؟» فيجيب: «طاعة الله ورسوله والخيال». فيقول الرسول ﷺ: «تلك الغاية»^(١) فهذا جوابه للنبي لا يخرج عما تعلمه في مدرسة الوحي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾﴾ [الصف] ولهذا حظى الفتى المؤمن بحب الصدر الأول من الصحابة، فكان لأبى بكر فيه ثقة بالغة ورأى حسن، حتى ليقول عنه: «لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل»^(٢). وقد أرسله أبو بكر على رأس حملة لتأديب علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص، الذى كان ارتد فى حياة الرسول ﷺ وخرج على رأس كلاب وحلفائها، بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام، فلما قبض الرسول ﷺ أقبل مسرعا حتى عسكر فى بنى كعب مقدما رجلا ومؤخرا أخرى، وبلغ ذلك أبا بكر فبعث القعقاع وقال له: «سر حتى تغير على علقمة لعلك تأخذه لى أو تقتله، فاصنع ما عندك». وكان الفتى عند حسن ظن الخليفة. فإنه ما لبث حتى أغار على الماء الذى عليه علقمة، فاستبى نساءه وبناته وامراته، وقدم بسبيته وبعلقمة أسيرا على خليفة رسول الله ﷺ^(٣).

(١) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

(٢) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤، أسد الغابة ج ٤ ص ٢٠٧.

(٣) الأغاني (الساسى) ج ١٥ ص ٥٥ - ٥٦.

وأخذت ثقة أبي بكر تزداد به وتعظم، وعندما استمده خالد بن الوليد عند منصرفه إلى العراق أمده به، فقيل له: أتمد رجلا انفض عنه جنده برجل؟ فأجاب أبو بكر: «لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع»^(١).

وقد أيدت الحوادث ثقة أبي بكر، فلم يهزم جيش كان فيه القعقاع خلال الفتوح في العراق والشام. فقد كان صمام أمن المسلمين في كل معركة اشترك فيها، وإن لم يكن قائدها، إذ يكون المسلمون أقرب ما يكونون إلى الهزيمة فإذا به يلوح في الأزمات فيبدل هزيمتهم نصرا مؤزرا، مثله مثل السهم الأخير في الجعبة، وقد صدق حين قال عن نفسه في هذا المعنى:

يدعون قعقاعا لكل كريهة
فيجيب قعقاع دعاء الهاتف^(٢)

٢- القعقاع فارس الفتوح

رافق القعقاع خالد بن الوليد في فتح العراق، إلى أن فصل معه إلى الشام ثم كان على مقدمة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، الذي قاد جيش العراق وعاد به إلى القادسية. وغزا بعد ذلك مع سعد بن أبي وقاص، والنعمان بن مقرن في نهاوند. ولا نسمع عنه شيئا بعد هذا في الفتوح.

وقد أبلى القعقاع بلاء رائعا في المعارك التي اشترك فيها، وسكاد بلاؤه يصور ملحمة رائعة، تضعه في زمرة الفاتحين المعدودين في تاريخ الحروب قاطبة، وأكاد أتصوره فتى قويا ليس بضخم الجثة، بل أميل إلى النحول. عيناه واسعتان تبرقان بذكاء حاد، عريض الجبهة، كثيف الحاجبين، يرسم على وجهه ما يعبر عن القسوة والصرامة، مقطب الجبين، مفكرا مطرقا في أغلب أوقاته، يتبع قائده المظفر خالد بن الوليد، ويتابعه ويتأثر به، حتى ليكتسب منه صفات: الجرأة، والمبادرة، وكثيرا من خدع الحرب. وفي أول التقاء بين خالد والفرس - بقيادة هرمز عند الحفير - يفقد خالد حكمته أمام تحدى القائد الفارسي له، عندما دعاه للترال فيرمى إليه بنفسه، وبينما هما يختلفان ضربتين احتضنه خالد يريد قتله، فإذا بأهل فارس يغتمونها فيشدون يريدون قتل خالد وإنقاذ

(١) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

(٢) الإصابة ج ٥ / ٢٤٥.

قائدهم من بين يديه فإذا بظل القائد «القعقاع» يخرج من بين الصفوف فيحمل عليهم حملة عنيفة مفاجئة، ويهزمهم هزيمة نكراء^(١).

واشترك القعقاع مع خالد في فتح الحيرة، ولما فصل خالد إلى الأنبار في طريقه إلى دومة الجندل لم يجد بين أمرائه أحدا خيرا من القعقاع، فخلفه على الحيرة ولم يكذب خالد يرتحل حتى ثار العراق وكذلك فعل أهل الحيرة ظانين أن الحظ واتاهم، وسرعان ما راح القعقاع يدافع بنى تغلب - الموتورين لمقتل عقة - وبعث بالأنباء إلى خالد، فطار من دومة إلى الحيرة، حيث خلف عليها عياضا، وأطلق القعقاع إلى الحصيد، وقد أمده من روحه بقوة على قوته، ولم يثبت له العجم، فقتل قائدهم، وفر جيشهم، وفر الفالة إلى الختافس، فتابعهم، ففروا. وفي المصيخ: تواعد خالد والقعقاع وأبو ليلى بن فدكى حيث ملأوا الفضاء بجثث القتلى.

وعندما أمر أبو بكر خالدا بالتوجه إلى الشام ضمن خالد بالقعقاع، فرفض أن يتركه للمثنى^(٢). وفي الشام: أبلى القعقاع في كل المعارك التي شهدتها بلاء حسنا. وكان على كردوس من كراديس القلب، يفعل أفاعيله بالروم حتى انتصر المسلمون^(٣). وشهد مع خالد فتح دمشق، وتربص معه عند أسوارها، وقد اتخذ جبالا كهيئة السلالم، وعبرا مع نفر من شجعان المسلمين الخندق عائمين على القرب، وأثبتا حبالهما في السور وتسلفا، ثم انحدرتا، والمسلمون من خلفهما يتبعونهما، حتى فتحو باب دمشق وتدفق إليها المسلمون. ثم شهد وقعة فحل حتى فتحت، وكان له فيها بلاء مذكور.

وبعد الفتح: سيره أبو عبيدة على مقدمة هاشم إلى العراق. وبينما كان المسلمون والفرس مشغولين - بدفن قتلاهم صباح يوم أغواث - كان القعقاع يسرع السير في ألف من جند هاشم على مقربة من القادسية، وأعمل حيلته ليشد مقدمه عزائم المحاربين في هذه الموقعة الخطيرة فقسم رجاله الألف إلى عشر فرق، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها على مدى البصر، وسار على رأس الفرقة الأولى، وبلغ سعدا

(١) البلاذري / ٢٤٢.

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٩٣.

(٣) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٤.

قبل استئناف القتال فبشر المسلمين بالمدد، وانطلق يتقدم الصفوف يستفتح القتال، قائلاً للمسلمين اصنعوا كما أصنع، ونادى «من يبارز؟» فخرج له من يقول: أنا بهمن جاذويه، فإذا بالقعقاع يصيح: يا ثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر، وانقض عليه فأورده حتفه، فتنشط الناس وفعلوا كفعله، وكان كلما رأى فرقة من فرقته تتقدم كبر فكبر المسلمون، وهجموا، وهم يرون فعالة بالفرس وتدفع الجند فحملوا، والقعقاع يصيح: باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها.

واتصل القتال إلى منتصف الليل، حتى لم يعد أحد من الفريقين يرى الآخر، والقعقاع يزاحف الفرس حتى زاحفهم ثلاثين رجلاً، وقتل في كل زحف فارساً^(١) حتى استحق في آخر هذا اليوم فرساً من عدة أفراس وسيوف أرسلها الخليفة لتقسم في أهل النجدة والبلاء. وقد قام هو وبنو عمه بحيلة بارعة، إذ برقعوا إبلًا وجللوها، منتهزين غياب الفيلة في ذلك اليوم - لتقطع وضنها يوم أرمات - وكان للإبل في هذا اليوم بلاء كبلاء الفيلة في اليوم السابق.

ونام المسلمون والفرس ليلتهم، بينما أخذ القعقاع يسرب جنده طوال الليل إلى المكان الذي قدموا منه، على أن يقدموا بالطريقة ذاتها، فإن أدركهم هاشم وجاء بمن معه فذاك، وإلا جددوا للناس رجاء في المدد، فزادهم هذا الرجاء إقداماً.

ووقف الفارس الذكي عند الفجر في المؤخرة يتطلع ناحية الصحراء، فلما بدأت خيله تقبل كبر وكبر الناس، وتبعهم جند هاشم يتلاحقون دراكبا، ونشب القتال وفعلت الفيلة فعلها، ورأى سعد بأسها، وخشى أن تتكرر مقتلة بنى أسد، فأرسل إلى القعقاع وعاصم أخيه، وطلب إليهما أن يكفياه الفيل الأبيض - وكان بإزائها - فترجل القعقاع وأخوه ووضعاً رمحيهما في عيني الفيل، الذي تراجع من الألم، فطرح سائسه وولى مشفره، فضربه القعقاع بسيفه فاختلت صفوف الفرس، وحمى وطيس القتال. ولما كبر طليحة بأسفل المخاضة ارتاع أهل فارس، وظنوا جيوش المسلمين قد غدرت بهم، وظن المسلمون أن الفرس فتكوا برجالهم، وأغار عمرو بن معديكرب على جماعة من الفرس، فتقدموا زاحفين، وسقط صديق القعقاع «خالد بن يعمر التميمي» مجندلاً في

(١) الإصابة ج ٥ / ٢٤٤.

دمائه، وكان صادق الحملة على الأعداء، فإذا به ينقلب وحشا ضاريا، يطيح براءوس
الفرس بسيفه من غير أن يستأذن سعدا الذى راح يقول: «اللهم اغفرها له وانصره، فقد
أذنت له وإن لم يستأذني»^(١). ولحقت بالقعقاع القبائل، فحملت خلفه، وظلت أصوات
الفرسان عالية حتى تقدم الليل فخفتت. وسيطرت قعقعة السلاح على الأسماع، بات
الجيوشان يقتتلان أعنف قتال وأقساه. والحرب تدور حول القعقاع وهو يرتجز ويسير فى
الناس قائلاً: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر
مع الصبر. حتى كان النصر، فتابع المنهزمين فى جنده يأسرون من نجا من القتل.

وها هو فى جند سعد، وقد وقف نهر دجلة يحول بينهم وبين المدائن، وهم
ينظرون إلى تدافع مياهه، ويأتى ببعض الفرسان يسألهم: كيف العبور؟ فدلوه على
مخاضة فى النهر تخاض إلى صلب الوادى، لكنه خشى عادية التيار على جنده، فلما
أناه النبأ بأن يزدجرد حمل خزائنه إلى حلوان جمع الجند، وراح يدعوهم إلى العبور،
وانتدب حامية تحمى الجند من ذوى البأس، وكان أول من انتدب عاصم بن عمرو ومعه
ستون نفرا، وهو يصرخ فيهم: «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا»
واقترح النهر وزملاؤه معه. فلما رأى القعقاع الفرسان يتقدمون فى سبحهم مد بصره
فرأى الفرس يتهيئون للقائهم فسرعان ما انتدب ستمائة دفع بهم إلى النهر، والفرس
مذهولون يقولون: إنكم لا تقاتلون إنسا وبعد أن دخل المسلمون المدينة طارد القعقاع بن
عمرو فارسيا فقتله وأخذ منه عيبتين، فيهما أسياف وأدراع لكسرى، وهرقل، ولخاقان
الترك، وملوك آخرين^(٢).

ثم ها هو بعد ذلك: يعينه الخليفة عمر باسمه على مقدمة هاشم بن عتبة لياتى
جلولاء، وقد تحصن الفرس بها مستميتين فى الدفاع عنها، فحاصرها المسلمون ثمانين
يوما، والأمداد تأتى إليهم من المدائن، وتأتى إلى الفرس من جلولاء، وكان الفرس
يخرجون ليزاحفوا المسلمين متى شاءوا ثم يعودون إلى حصونهم منهزمين. وأيقن الفرس
أنهم سائرون إلى الهزيمة لو استمر الأمر هكذا، ورأوا أن يباغتوا المسلمين. وذات يوم

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٣٢.

(٢) الإصابة ج ٥ ص ٢٤٥.

باغتوهم صباحاً بأهوال الرماح حتى نفذ الشباب من الفريقين، وصلى المسلمون الظهر إيماءً، ووقف القعقاع يخطب في جنده: أهالكُم ما رأيتم أيها المسلمون؟ قالوا: نعم: إنا كالون وهم مريحون. قال القائد الذي لا يعرف إلا النصر: بل إنا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم، وحمل فحمل المسلمون. ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى - وقد دبر في نفسه أمراً - «أين أيها المسلمون، هذا أميركم على باب خندقهم فأقبلوا عليه، فحملوا على الخندق، وهم يظنون هاشماً بالخندق، فاقتلوا قتالاً أشبه بليلة الهرير، فلما انتهوا إلى باب الخندق لم يجدوا إلا القعقاع^(١)، ورأوا الفرس ينهزمون أمامهم، ويحول الخندق بينهم وبين الارتداد إلى المدينة، فأخذهم المسلمون حتى قتل منهم مائة ألف، وفر من بقى إلى حلوان. فأتبعهم القعقاع فأدرك مهران فقتله، وفر الفيرزان إلى حلوان ينهب الأرض، ليخبر يزيدجرد بهزيمة جلولاء، وانتهى إلى الري. وقدم القعقاع حلوان، حيث خرج إليه حماتها فقاتلوه قتالاً عنيفاً، ثم انهزموا أمامه^(٢). ولما فكر عمر في بناء محلة للمسلمين الذين لم يتلاءموا مع وخومة المدائن، استقدم سعد عبدالله بن المعتم والقعقاع بن عمرو وأمرهما بارتداد المكان الصالح لمقام العرب^(٣).

ثم ها هو كرة أخرى بالشام، يرسل به سعد بن أبى وقاص على رأس أربعة آلاف كأمر الخليفة عوناً لأبى عبيدة، عندما حصرته الثورة في حمص، إبان حملة قسطنطين، فانطلق في فرسانه يغذون السير من الكوفة إلى حمص. وفي نفس الوقت كان عياض وعبدالله بن عتبان والوليد بن عقبة وسهيل بن عدى يعزلون القبائل التي سارت من الجزيرة تريد لقاء الروم حلفائهم، وأسقط في أيدي الروم، وأخذهم المسلمون من جيش أبى عبيدة قبل وصول القعقاع بثلاثة أيام.

ثم نراه يقوم بدور كبير يوم نهاوند، إذ تحصن الفرس في حصن لهم وجعلوا يترقبون، وطال حصار المسلمين حتى عظم الضيق، فعقد النعمان بن مقرن مؤتمراً قرر أن

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٥٩.

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٣١٧.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٤٨٤، ٢٤٨٥.

يبعث المسلمون خيلا تحديق بالأعداء فترميهم، لينشبو القتال ويثيروا الفرس للخروج، فإذا استثيروا وخرجوا تتهقرت خيل المسلمين استطرادا، حتى يطمعوا الفرس في هزيمتهم، فيرتد المسلمون فيحصرونهم ويأخذونهم على وجوههم. وضعت الخطة، ولكن من الفارس الباسل الذى ينفذها بنجاح، دون أن يكون تتهقره مؤديا إلى الهزيمة فعلا لا افتعالا؟ هناك القائد وأخواه، وحذيفة، وعمرو بن معديكرب، وطليحة. . وغيرهم، ولكن النعمان يتدب القعقاع ليذهب إلى ظاهر المدينة ليتفذ خطته.

وأطاع الجندي الباسل، فتقدم فرمى المدينة بالنبل. وأظهر العزم على اقتحام الأسوار، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس ينهضون إليه ليصدوا هجومه. وأثار المسلمون حماسة عدوهم - بقتلهم كل من يبرز إليهم - فخرجوا، ورأوا جند القعقاع قلة فاغبتوا واجتازوا الأسوار والجند يقاتلون المسلمين، وثبت لهم القعقاع زمنا حتى لا تنكشف حيلته، ثم تظاهر بالهزيمة وولى بجنده، مدبرا أمامهم، فتابع القعقاع فراره ليعيد بهم عن المدينة، وعن مدى النبل، ورأى القعقاع الفرس يتابعونه ومعهم حسك الحديد ينقلونه أمامهم، ليضمنوا الحماية من كرة المسلمين فأمعن فى الفرار، وأمعن الفرس فى تعقبهم، وقد تيقنوا من هزيمة المسلمين، فتركوا حسك الحديد وراءهم، وأسرعوا يطلبون المسلمين. وهنا انحاز القعقاع إلى جند النعمان وثبت فى مواجهتهم، وتراجع الفرس يتفكرون فى المكيدة. واستحث الأمراء قائدهم أن يأمر بالهجوم، ولكنه انتظر وحبس جنده عن الفرس، ولم ينجد القعقاع، فأقبل الفرس يرمونهم حتى أفسوا فيهم الجراحات، وشكا الناس بعضهم إلى بعض، والنعمان يصبرهم منتظرا الزوال ومهب الرياح، كما كان يفعل ﷺ، وسار النعمان يحمل رايته يحض الجند ويحمسهم، ثم كبر وحمل، فتبعه المسلمون ينقضون كالعقبان، واشتد القتال، ولم يكن يسمع إلا صيحات الأبطال ووقع الحديد على الحديد. واستحرت الحرب فانهمرت الدماء، وأخذت الدواب تنزل. وبينما النعمان على جواده استجاب الله دعاءه وأناله الشهادة، فزلق جواده فى الدماء فصرعه وجاءه نعيم أخوه فسجاه بشوبه، وأخذ اللواء فدفعه إلى حذيفة، ولكن حذيفة أقامه مقام أخيه، وأمره بإخفاء الخبر. وأقبل الليل والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم، حتى أصاب الفرس الإعياء فترجعوا منهزمين، فإذا بالحسك فى انتظارهم مكانه

يوقف تراجعهم، فأرادوا الانحراف، فإذا أمامهم خندق عميق، أعماهم الخوف عنه
وستره الظلام فهووا فيه بخيولهم، وهلك فيه ثمانون ألفاً، غير ثلاثين ألفاً لاقوا حتفهم
فى المعركة وفوق الحسك.

وفر الفيرزان فيمن فر يطلب النجاة، فتبعه القعقاع وأدركه عند ثنية همذان،
وكانت بعض الدواب تحمل عسلاً فى هذه الثنية فسدت على القائد الهارب سيّله،
فترجل يريد النجاة فى الجبل، فتبعه القعقاع وقتله، ويم شطر همذان، حيث صالحه
أميرها^(١).

وبعد فتح الفتوح لا نعود نسمع شيئاً عن هذا البطل فى الفتوح، إلا أن ابن الأثير
يذكر: أنه سكن الكوفة، ثم كان مع على بن أبى طالب، فشهد معه الجمل وغيرها من
حروبه. وقام بينه وبين طلحة والزبير بسفارة وكلمهما كلاماً كاد يقرب به الناس إلى
الصلح^(٢).

هذا هو بلاء القعقاع بن عمرو فارس الفتوح الإسلامية، فتى من فتيان الله، باع
حياته خالصة له، وجاهد فى الله حق جهاده، واستمات فى نصرة دينه فى تفران
مخلص، ومهارة فائقة، وذكاء نادر، وقدائية مؤمنة لا يعوقها شاغل خاص، ولا
يعترضها قصد إلا إعلاء كلمة الله وحمل رسالته إلى أصقاع العالم، فلا غرو إذا دعوانه
بفارس الفتح، ولا غرو إذا ما دعوانه بشاعر الفتح إذ استوى نضجه فى أتونه، ونمت
شاعريته فى ظلاله، فصور أحداثه تصويراً دقيقاً فى شعره، فكان شعره مرآة للأحداث
التي صنعها بسيفه.

٢- القعقاع شاعر الفتوح

وكما لا تذكر الروايات شيئاً عن حياته فى الجاهلية، فإنها لا تذكر شيئاً عن شعره
أو ما يفيد معرفة به قبل الإسلام، فمجموع شعره إسلامى، أو بعبارة أدق: ليس له
شعر إلا فى الفتوح التي أنطقته بالشعر. وقد أسهم هذا إلى جانب وضوح حياته وبلائه

(١) الطبرى ج٥/ص٢٦٢٦، ياقوت ج٤/ص٨٢٧.

(٢) أسد الغابة ج٤ ص٢٠٧.

فى الفتوح فى تواتر شعره وازدياد الثقة بصحته جميعا، إذ يقترن شعره بحياته خطوة بخطوة، ويتفق مع الأحداث التاريخية اتفاقا تاما.

وعلى هذا فشعره يمكن أن يعد وثيقة تاريخية بالغة القيمة، فهو مرآة لأحداث الفتوح التى عاشها الشاعر الفارس وعاصرها، حيث تنعكس عليه جميع جوانبها، من تحركات وتحولات وقاتل ونصر واستشهاد، ولم يحدث أن تحركت كتيبة من مكان إلى مكان، أو تحولت من ميدان إلى ميدان، ولا من معركة إلى معركة إلا وسجل شعره ذلك، حتى لتختلف الروايات التاريخية فى أمر الفتوح الأولى فى الشام، وشهود كتيبة خالد هذه الفتوح، فإذا بشعره يسجل الوقائع التى حدثت فى الشام مرتبة ترتيبا زمنيا - مبتدئا - بسقوط خالد على بنى غسان فى ديارهم، منتقلا إلى بصرى، حيث التقى بسائر جند المسلمين - ومنتھيا إلى اليرموك، فقال:

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفا فوق تلك المناخر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر^(١)

ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها فى شعره، مشيدا ببطولته وبطولة المسلمين، فعل ذلك فى الحفير، وفى الوجلة، وفى الثنى، وفى الحيرة، وفى الحصيد، وفى الخنافس والمصيخ، وعند اليرموك، ودمشق، وفحل، وفى القادسية، والمدائن، وجنولاء، وحلوان، وأخيرا فى نهاوند.

ويكاد يكون القعقاع لهذا أكثر شعراء الفتوح شعرا وأغزرهم إنتاجا، فله فى كل موقعة من هذه المواقع مقطوعة أو أكثر.

وينصرف شعره كله فى الإشادة ببلائه وبلاء قومه، والإشادة ببطولات الفرسان من أصدقائه، وراثتهم، وتصوير قسوة المقاومة التى يلقونها من الفرس، وعرب القبائل والروم، والحوادث التى تقع فى أثناء المعارك، فضلا عن أرجازه التى كانت تهيب بالمسلمين أن يتقدموا للقاء أعدائهم. فهو يفخر بفعاله يوم نهاوند، حينما تعقب ركب الفيرزان وقتله عند ثنية العسل، ويذكر هتكه لبيوت الفرس، ومباغتهم فى قراهم فيقول:

(١) ياقوت ج٤/ ص ١٠١٥.

جدعت على الماهات في ألف فارس
هتكت بيوت الفرس يوم لقيتها
جست ركاب الفيرزان وجمعه
هدمت بها الماهات والدرب بغتة

بكل فتى من صلب فارس خادر
وما كل من يلقي الحروب بشائر
على فتر من جريتنا غير فئاتر
إلى غاية أخرى الليالي الغوابر^(١)

ويتناول هذه الواقعة في مقطوعة أخرى: يصور فيها متابعته للفيرزان، وما كان من سقوط الفرس في خندق نهاوند، المسمى وادي خرد، فيقول مفتخرا بصنيعه:

ويوم نهاوند شهدت فلم أحم
عشية وليّ الفيرزان موايلا
فأدركه منا أخو الهيج والندی
وأشلاؤهم في وادي خرد مقيمة

وقد أحسنت فيه جميع القبائل
إلى جبل آب حذار القواصل
فقطّره عند ازدحام العوامل
تنويهم عيس الذئاب العواسل^(٢)

وقد تناول هذه المعركة كرة أخرى، مفتخرا بقومه الذين أبلوا معه فيها بلاء حسنا، وكأنه يدفع عنهم اتهامها بالتقصير، ويعدد فعالهم بالفرس يوم نهاوند فيقول:

رمى الله من ذم العشيرة سادرا
فدع عنك لومي لا تلمني فإنني
فنحن وردنا في نهاوند موردا
ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا
فنحن لهم بينا ونصل سجلها
ملأنا شعابا في نهاوند منهم
وراكضهن الفيرزان على الصفا
ألا أبلغ أسيدا حيث سارت ويمت

بداهية تبيض منها المقادم
أحسرت حريمي والعدو الموائم
صدرنا به والجمع حران داحم
لشر ليال أنتجت لبالأعاجم
غداة نهاوند لإحدى القطائم
رجالا وخيلا أضمرت بالضرائم
فلم ينجه منها اتفاسح المخارم
بما لقيت منا جموع الزمام

(١) ياقوت ج ٤ ص ٤٠٥.

(٢) ياقوت ج ٤ / ص ٨٩٦.

غداة هورا في وای خرد فأصبحوا
تعودهم شهب النسور القشاعم
قتلناهم حتى ملأنا شعابهم
وقد أنعم اللهب الذي بالصرائم (١)
ويصف أسلحة المسلمين في هذه الواقعة التي أثار المسلمون فيها الفرس بالرمي،
ثم لجأوا إلى السيوف عندما خرجوا إليهم، فيقول مشيدا بالمسلمين:

هم هدموا الماهات بعد اعتدالها
بصحن نهاوند التي قد أمرت
بكل قناة لدنة برميية
إذا كرهت لم تتنى واستمرت
وأبيض من ماء الحديد مهند
وصفراء من تبع إذا هي رنت (٢)

وفي ليلة الهرير: رأى القعقاع صديقه العزيز خالد بن يعمر التميمي يدافع الفرس
ويبلى بلاء الأبطال، فأشاد بصنيعه، وقال في ذلك:

حضض قومي مضر حى بن يعمر
فله قومي حين هزوا العواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا
لأهل قديس بمنعون المواليا (٣)

ولكن صديقه لا يلبث أن يسقط مجندلا، فينتلق القعقاع وكأنه «أشيل» يرى
صديقه «باتروكلوس» صريعا، فيحس الفرس بسيفه مزاحفا، دون أن يأذن له سعد،
ويقول - معبرا عن أحاسيسه في هذه اللحظة، وما انطوى عليه صدره من غيظ ورغبة
في الثأر:

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر
سقى الله أرضا حلها قبر خالد
فأقسمت لا ينفك سيفي يحسهم
إذا ارتحل الغار لم يتسرحل
ذهاب غواد مدججات تجلجل
فإن زحل الأقوام لم أتزحل (٤)

(١) ياقوت ج ٤ ص ٨٢٧، ٨٩٦.

(٢) ياقوت ج ٤ ص ٤٠٥.

(٣) الطبرى ج ٥/ص ٢٣٢٦.

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٣٠.

والقعقاع الفارس الذى يشيد ببلائه فى شعره لا يجد غضاضة فى الشهادة بقدره
أعدائه، وبلاتهم فى الدفاع عن أرضهم، فيصور شجاعتهم وحمايتهم لبلادهم فيقول
فيما كان من دفاع العرب الذين حشدهم الفرس بين الوجلة وكثرتهم من بكر بن وائل:
ولم أر قوما مثل قوم رأيتهم على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس فى كل مجمع إذا ضعضع الدهر الجموع وككببا(١)

وعندما يجتمع الفرس والروم على ملاقة المسلمين بالفراض، يصور القعقاع التقاء
هذا الحلف وإيادة المسلمين لهم حتى صرعوا كالأغنام، قال:

لقينا بالفراض جموع روم وفرس عمها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا ويستتا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام(٢)

وفى يوم أغواث: قدم رسول من الخليفة بأربعة جياد وأربعة سيوف، لتقسم فى
أهل النجدة والبلاء، فاستحق القعقاع جوادا لما قدم فى هذا اليوم فيذكر هذه المكافأة
ويشيد ببطولته:

لم تعرف الخيل العرب سوانا عشية أغواث بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها على القوم ألوان الطيور الرسارس(٣)

وخلف القعقاع بعض أراجيز كان يهدر بها عند لقاء الفرس فى القادسية والروم فى
اليرموك، ففى يوم اليرموك: كان على أحد كراديس القلب، يفعل بالروم الأفاعيل،
ويجندل أبطالهم، وهو يرتجز بقوله:

يا ليتنى أفاك فى الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد

وأنت فى حلبتها الوراد(٤)

(١) ياقوت ج ٤ ص ٩٣٦.

(٢) ياقوت ج ٣ / ٨٩٤.

(٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢١.

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٩٧.

وفى القادسية - فى زحوفه الثلاثين يوم أغواث - كان يرتجز فى كل زحف يحمل فيه، من مثل قوله:

أزعجهم عمدا بها إزعاجا أظعن طعنا صائبا ثجاجا

أرجو به من جنة أفواجا^(١)

وكانت آخر حملاته فى هذا اليوم تلك التى قتل فيها يزر جهر، فأنشد وهو يسقيه كأس حتفه:

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
فى يوم أغواث فليل الفرس أنخن بالقوم أشد النخن

حتى تفيض معشرى ونفسى^(٢)

وكان رجزه بشيرا بالنصر، عندما تناهى صوته إلى سعد، وهو يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائدا أربعة وخمسة وواحدا
تحسب فوق البلد الأسودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربى واحترزت عامدا^(٣)

وهكذا - نرى شعر القعقاع يمتد فيشمل جميع أغراض الشعر فى هذا المقام، ويصور جوانب الحياة المختلفة فى الفتوح الإسلامية تصورا دقيقا، يجعل الاعتماد على شعره أمرا ضروريا لكل من يعنى بدراسة الفتوح، ورسم صورة كاملة لجميع أقطارها. وكذلك كان رجزه أحد العوامل المثيرة فى إقدامه وإقدام جنده فى هذه الحملات العديدة التى صممها وقادها فى اليرموك والقادسية.

ويكاد يكون شعره استغرق كل موضوعات الشعر التى خاض فيها شعر الفتح جميعه، اللهم إلا شعر الحنين، فلسنا نعرف له فى هذا الموضوع شيئا، وإن كنا نرجح أن سبب هذا وجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه فى حرب العراق، ووجود زوجته

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣١١.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٦.

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٣٣.

النخعية معه كذلك^(١). ويخلو شعره أيضا من أية دلالات على حياته الخاصة أو عواطفه الشخصية في غير موضوعات الفتوح، وكأنما طرح الشاعر كل ما يمت إلى حياته الشخصية وراء ظهره، حينما استقبل حياة الطعان والجلاد. فإذا بنا لا نجد في شعره شيئا يكشف لنا عن كنه شخصيته، إلا بما يميزها من الشجاعة والفروسية والفدائية المؤمنة، وتنعكس كل هذه الصفات في افتخاره بنفسه وعشيرته وجماعة المسلمين.

وهو في هذا يشارك شعراء الفتوح جميعا، إذ لم يعد لهم في حياتهم ما يعبرون عنه في شعرهم إلا ما هو مائل أمام أعينهم، وما تمتلئ به وجداناتهم من أحداث وانفعالات.

وشعره كما هو واضح شعر بسيط لا غموض فيه ولا تعمل ولا زخرفة، فكل قصد هذا الشعر أن ينفس عما في وجدان صاحبه تنفيسا بسيطا، كاستجابة خرة وطيقة للعوامل النفسية التي تلبس به.

ومن هنا نجد شعره متدفقا، دون قسر في التعبير، أو تعسف في التصوير، أو جفوة في أفكاره، أو زخرف في ألفاظه؛ ولهذا فهو شعر صادق لا تكلف فيه، حار لا زيف فيه، وهو - أولا وآخر - صورة نفسية لذات صاحبه وأفكاره، فضلا عن كونه سجلا حافلا للفتوح التي أسهم فيها، وتاريخا أدبيا لفروسيته.



(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٥٤.